محمد علي ضناوي

مقدمات

في فهم الحضارة الإسلامية




مؤسسة الرسالة

دار الإيمان

الطبعة الأولى

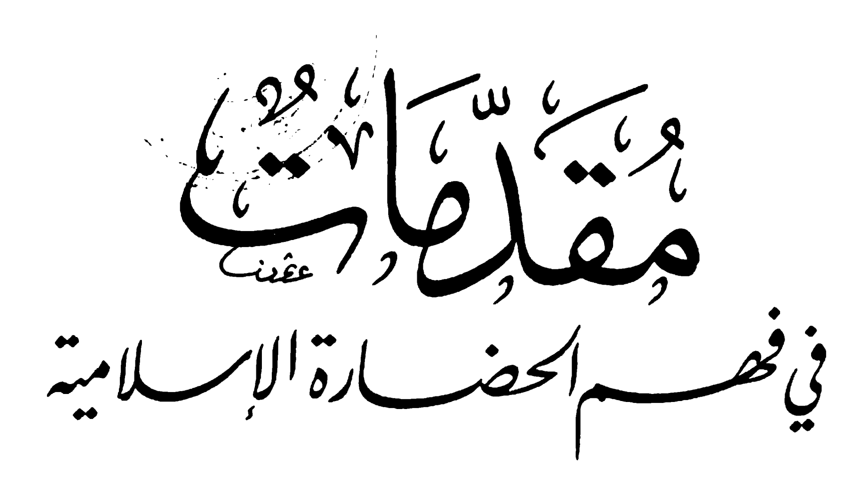
١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م



مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٢٩٥٥٠١ - ٢٤١٦٩٢ ص.ب: ٧٤٦٠ برقياً: بيوشران

دار الإيمان للطباعة والنشر . طرابلس - لبنان
هاتف: ٦٢٨٥٨٢ - ٦٣٠٢٤٥ ص. ب: ٥٧٨

محمد علي ضناوي



دار الإيمان

مؤسسة الرسالة



عناوين البحث

- بين يدي المقدمات
- الحضارة مصطلح ومفهوم
- ضوابط الحضارة الاسلامية
- تحديات تطرحها الحضارة الاسلامية
- مرحلة التوقف عن العطاء والافراز الحضاري المتمادي
- دور الطليعة في اخراج الحضارة الاسلامية الى مرحلة العطاء

بين يدي المقدمة

لأدعي بهذه الصفحات أني أحطت بجوانب الحضارة الاسلامية المختلفة . . . كما لا أدعي أني وفقت الى تحديد معالمها جوهراً ومظهراً . . . فالمعالم والجوانب يحتاجان الى أسفار عديدة وكم حري أن تظهر تلك جميعاً فتبذ قصة الحضارة لـ (ول ديوارنت) الذي وضعه في عشرين مجلداً ولا نتمنى ذلك للمقابلة والبذ وانما نريده من أجل معرفة ذاتنا الحضارية بصورة شاملة بعيدة عن مؤثرات خارجية ، فنتمكن بعدها من تقديمها الى الغير وتعريفهم بها ودعوتهم إليها خاصة اولئك الذين يطمعون حقيقة في دخول (حوار الحضارات) من أجل ايجاد حضارة كونية شاملة ـ كما يعلنون[1] ـ فتهدأ نفوسهم وترتاح عقولهم لعثورهم على ضالتهم المنشودة وعلى مثالهم المفقود . . .

ومن المؤسف حقاً أننا لا نزال نفتقد موسوعة لقصة حضارتنا الفريدة . . . تكتب بمعطيات إسلامية حقيقية وتؤرخ التاريخ الصحيح لمختلف النواحي الحياتية الإسلامية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والقضائية والعلمية والحقوقية والطبية والفنية وتدوّن الماضي والحاضر لتقف على عتبات المستقبل مشيرة إلى بعض معالمه وأُطره واحتمالاته . . .

---

(١) غارودي في كتابه حوار الحضارات .

قلت:لا أدعي أني أحطت بجوانب الحضارة الإسلامية ولا بجوهرها فلم يكن ذلك مقصدي عندما كتبت هذا البحث ، فقد جاءت الكتابة أساساً تلبية لدعوة كريمة من الندوة العالمية للشباب الاسلامي[1] فوجدت فائدة أن أطل على الحضارة من مقدمات جديدة وأساسية تكون بذاتها محاولات جدية لفهم جديد للحضارة الإسلامية الخالدة . . .

وقد كانت هذه المقدمات او محاولة الفهم الجديد للحضارة تحديداً منهجياً يمكننا معه تأطير مفاهيمنا الحضارية وتقعيدها ووضعها في ابعادها الصحيحة فلا نلصق بعدئذ بها ما هي براء منه أو ما ترفضه هي ببداهة أو نطبق عليها من سنن (حضارات) الآخرين ما لا يتفق مع طبائعها أو يتناقض مع ذاتيتها المتميزة بها عن سواها . . . فـ ﴿ لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه فلا ينازعُنَّك في الأمر وادع الى ربك انك لعلى هدى مستقيم ﴾ الحج ٦٧ .

فالحضارة الاسلامية مثلاً ترفض ان يقال عنها إنها ، مثلها مثل سائر الحضارات تمر بدورة انطلاق فامتداد فانحسار فذبول أو انها تهرم وتنحط . . ثم بعد ذلك تنطلق لتفتش عن أسباب وعوامل (انحطاط الحضارة الاسلامية) . .

فعندما ترفض الحضارة الاسلامية دورة نتشيه (الحضارية) أو هرم (ابن خلدون) أو الانحطاط الحضاري عند مجموعة من الباحثين كان لا بد أن تقدم تفسيراً بديلاً جاء مرتكزاً على مفهوم الضوابط تلك التي تجعل الحضارة في صورة عطاء مستمر (في بركات من السماء والارض) حتى اذا تعطلت تلك الضوابط توقفت الحضارة عن العطاء . . . لتجهد في افراز حضاري آخر بديل يتمادى في الزمان والمكان لأجل إخراجها من جديد الى العطاء الكامل .

---

(١) قرىء هذا البحث في الندوة الاولى للمؤتمر الرابع الذي انعقد في ربيع ثاني ١٣٩٩ آذار مارس ١٩٧٩ في الرياض تحت عنوان الملتقى الحضاري الاسلامي . ومن المفارقات اللطيفة ان بحثا اخر اعده الشيخ محمد الغزالي ـ حفظه الله ـ بعنوان عوامل واسباب انحطاط الحضارة الاسلامية وكان من المقرر ان يقرأه في نفس الوقت مع بحثي هذا . . . الا ان عدم حضوره افقد الندوة عنصر حوار ومناقشة ولو ان المشاركين في اللقاء وافقوني على وجوب رفض عبارة انحطاط الحضارة الاسلامية والاستعاضة عنها بانحطاط المسلمين . . . فالحضارة الاسلامية لا تنحط وانما الذي قدينحط اهلها المسلمون الذين انحرفوا عن الحق والصراط المستقيم .

فالحضارة الاسلامية اذن ، في قمة (جبل الحضارات) شهيدة على الانسانية جمعاء ومن استحق الصدارة والقمة ، بما لديه من مقومات خالدة ، لا يمكن أن ينحدر الى السفح . . . فالمقومات هي هي لا تبديل فيها ولا تغيير . . . فكيف يمكن أن تكون هذه المقومات عنصر ازدهار ـ في مرحلة ـ وعامل انحطاط في مرحلة اخرى . . . ؟

***

إنها قراءة جديدة وجدية للحضارة الاسلامية . . . تحتاج إلى مزيد من التدقيق واعادة البحث والحوار . . . وحسبنا في هذه الصفحات أن نفتح الباب على مصراعيه . . . ليلج فيه كل مخلص واع . . . ولنتعاون معاً على اعادة ترتيب اوراق الحضارة الاسلامية الفذة .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

طرابلس رجب ١٤٠٠
أيار ١٩٨٠

أبو مؤمن

الفصل الأول

الحضارة مصطلح ومفهوم

من المصطلحات الاكثر تعقيدا مصطلح الحضـارة . فيكاد هذا المصطلـح يجمع مئات التفاسير ، وكل منها يعكس مرئياته الخاصة عن الوجود ، ويختصر مفاهيم اصحابه عن الحياة . ولا غرو في ذلك ، فمفهوم الحضارة مقياس لمستوى الادراك ، وعنوان على معطيات الامم والشعوب ، ومن خلاله يمكننا تفسير كثير من أحداث التاريخ ومضامين الثقافة والابداع . وقد اكثر المؤرخون والفلاسفة والمفكرون في القرون المتأخرة من الابحاث الحضارية موضحين مفاهيمهم عنها ـ وبخاصة ـ تفسير تواريخ الامم ، توصلا الى رسم صورة او اخرى للحضارة ألأمثل التي بها يسعد الناس .

ولا يتسع هذا البحث عرض وتحليل جميع تلك التصورات والاراء ، فهذا يخرج عن موضوعه ، غير اننا نجد لزاما توضيح بعض المعالم بقـدر ما يتصـل بالبحث وبقدر ما يعين على معالجة المفهوم الاسلامي للحضارة .

الحضارة هي المدنية

أولى تأويلات الحضارة تلك التي تجعلها مرادفة لمصطلح المدنية . **فالحضارة مدنية ، والمدنية حضارة** . وكل الاقوام وبخاصة اولئك المتخلفـين عن انمـاط الحياة المدنية من بدو او قبائل الادغال هم غير متحضرين ، وان تكن عندهـم مستويات من فكر وسلوك . إلا أن هذا الرأي الذي كان يحتل حيزا كبـيرا من مفاهيم لفيف من الباحثـين ثبـت بطلانـه وتناقضـه ، فالحضـارة تكون في كل مجتمع ، ولو كان موغلا في البدائية المدنية . ذلك ان تجمع الناس والتفاعل ضمن نمط للحياة معين ـ هما بحد ذاتهما ـ حضارة . . . غير انها تختلف عن مثيلاتها في المستوى . . . ليس الا . . .

الحضارة هي العقل او التاريخ الاقتصاد

وذهب فريق من العقلانيين ، وهم الفلاسفة الغربيون الذين مجدوا العقل في عصور النهضة في أوروبا ، الى تعسف بَيِّنٍ في تفسير الحضارة **فجعلوها مرادفة للعقل نفسه ،او في احسن الاحوال لثمرات العقل** . فلا حضارة الا للظواهر الانسانية المبنية على مقياس العقل وتقريراته . وطالما ان العقل - برأيهم - هو الذي يسود مختلف اوجه الحياة البشرية ، فالعقل اذن هو الذي يفسر الحضارة ويعطيها ابعادها الصحيحة (؟) ومن خلال هذا المفهوم العقلي للحضارة تفرعت مفاهيم أخرى فمنهم **من ظن ان الحضارة هي التاريخ** . فالتاريخ عندهم هو الحضارة ، فهو الذي يعكس حركة الامم والشعوب في صراعاتهم وثقافاتهم وأديانهم .

ومنهم من ذهب الى **ان الحضارة هي العلم** المبني على مكتشفات ساعدت الانسان على ان يحيا حياة افضل ، مستفيدا من البيئة حوله ، فلا عبرة - في هذا المفهوم - الا للتكنولوجيا ، فهي الحضارة بدءًا أو نهاية ، والعلم والمخترعات هما اللذان يمنحان الحضارة حيويتها ورقيها وبالتالي مفاهيمها الصحيحة .

ومنهم من ذهب الى ان الحياة ترتكز على عناصر اقتصادية اساسية تتكون من نتيجتها الحضارة . **فالحضارة هي الاقتصاد** ، ذلك - حسب ظنهم - ان مجموعة القضايا الاقتصادية تُفسر التاريخ وتنازع الامم والأفراد وبقاء الاصلح . فلا مهرب من القبول بالواقع الاقتصادي وربط الحضارة به سلبا او ايجابا .

الحضارة طريقة العمل والتفكير

ازاء قصور كل من هذه التعاريف ومجافاتها في بعض جوانبها للواقع الحضاري ، أطلق بعض المفكرين عموميات اخرى على مصطلح الحضارة . . . في محاولة لتفسيرها بشكل اشمل وهكذا . . . غدت الحضارة عند وليم هاولز[1] **كل من يساعد « الانسان » على تحقيق انسانيته** . . . . ولولاها لكان مجرد نوع آخر من انواع الحيوان . بينما حاول تايلور[2] ان يكون اكثر دقة بقوله : (هي كل ما يتقبله **الانسان كطريقة للعمل والتفكير** وكل ما يتعلمه ويعلمه لغيره من الناس) و(يدخل فيها ايضا النظريات الخاصة بتفسير الكون تفسيرا فلسفيا

---

(١) هاولز في كتابه ما وراء التاريخ ص ١٤٨

(٢) تايلور في بحث الطاقة المنشور في مجلة عالم المعرفة المجلد الخامس ١٩٧٤

تساعد على فهم الحياة وتسهيل الميعشة بشكل او بآخر) وكذلك (اساليب الضبط التي تهدف الى اقرار النظام الاجتماعي وانتشار نماذج السلوك المقررة) .

والحضارة في تعريف ول ديُورانت صاحب موسوعة قصة الحضارة (هي نظام اجتماعي يعين الانسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق لأنه اذا أمن الانسان من الخوف تحررت في نفسه دوافع التطلع وعوامل الابداع والانشاء وبعدئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضي في طريقه الى فهم الحياة وازدهارها) .

الحضارة هي الطاقة

وبعد هذا جاء المشتغلون بمسائل الطاقة فحاولوا مجددا حصر (**الحضارة بالطاقة وبأساليب التحكم بها**)[1] باعتبار ان الطاقة هي مصدر الانتاج والابداع والانسان الاول استخدم طاقته العضوية الكامنة في جسده فكان الكائن العضوي اول مصادر الطاقة ثم تطورت . . . .

الحضارة عند توينبي وكوهن

ولا يتردد **ارنولد توينبي** ، في ابحاثه الحضارية ، في محاولة ربط الحضارة بالكنيسة الكاثوليكية ، فالحضارة ، في رأيه ، تنشأ عن الاديان وفضلاها تلك التي تنشأ عن الديانة المسيحية الكاثوليكية برئاسة البابا ، وهي ـ بدون تعمية ـ الحضارة الغربية هي وحدها التي تحافظ على (الشرارة الالهية الخلاقة) وهي وحدها القادرة على ان لا تؤول الى ما آلت اليه سابقاتها .

وقد جاء بحث توينبي هذا بعد ان حدد معالم الحضارة بقوله : « انها حصيلة عمل الانسان في الحقل الاجتماعي والمناقبي وهي حركة صاعدة وليست وقائع ثابتة وجامدة . انها رحلة حياتية مستمرة لا تقف عند ميناء ما)[2] .

ويشارك توينبي مفهومه ذاك ، **الأستاذ هانزكوهن** ، الذي يؤكد بأن الحضارة العصرية ازلية وسرمدية وغير قابلة للانحطاط لان الشرارة الخلاقة نبعها ومصدرها واساسها . وينبغي ، والحضارة الغربية ، مثلى الحضارات ، ان تحاط حكما بهالة من القداسة . . .[3] .

---

(١) احمد ابو زيد ، المرجع السابق .

(٢) و (٣) الحضارة تحت التجربة ـ انظر ايضاً الحقيقة الحضارية ٢٢و٢٨

ويأتي العلامة **ابن خلدون** في مقدمة المشتغلين بالعلوم الحضارية ، وجاءت مقدمته في التاريخ ابحاثا ذات قيمة شاملة في الحضـارة . ومـع هذا فقـد جاء تعريف ابن خلدون للحضارة مقتصرا على العمران ومـا يُعْـرف بالمدنية وعمـر الدولة وهو بهذا تعريف قاصر لا يمكنه استيعاب مصطلح الحضارة وظواهرهـا المتعددة . . .

ابن خلدون والحضارة

وفي مقدمة المفـكرين المسلمـين في العصر الحـديث ممـن تعرضـوا لبحـث الحضارة **سيد قطب** الذي جاء بتعريف هو أقرب للشعار ، عندما كتب فصلا في كتابه « المعالم » تحت عنوان (الاسلام هو الحضارة)[1] مؤكدا بما لا يدع جدلا ان الاسلام وحده الحضارة ودونه تخلف وبالتالي لا يجوز اطلاق لفظ حضارة على ما سواه من امم . وقد شابهه بذلك شقيقه **الاستاذ محمد قطب** عندما انـكر جواز اطلاق مصطلح الحضارة على امم الاغريق والفـرس والرومـان واهـل الغـرب باعتبار ان هؤلاء عاشوا ويعيشون جاهلية منكرة[2] .

الاسلام هو الحضارة

اما **مالك بن نبي** فقد حاول ان يربط الحضارة بالوحـي الهابـط من السماء (فالحضارة لا تظهر في امة من الامم الا في صورة وحي يهبط من السماء ويكون للناس شرعة ومنهاجا . . . فكأنما قُدِّر للانسان الا تشرق عليه شمس الحضارة الا حيث يمتد نظره الى ما وراء حياته الارضية)[3]

الحضارة والوحى الهابط

ويتحدث **الاستاذ ابو الاعلى المودودي** عن الحضارة فيقول : (انما هي نظام متكامل يشمل كل ما للانسان من افكار وآراء واعمال واخلاق في حياته الفردية او العائلية او الاجتماعية او الاقتصادية او السياسية) ويعرف الحضـارة الاسـلامية بقوله : (مجموعة المناهج والقوانين التي قررها الله سبحانه وتعالى لكل هذه الشئون والشِعَب المختلفة لحياة الانسان . . . وهي المعبر عنها بكلمـة دين الاسـلام او « الحضارة الاسلامية »[4] .

الحضارة الاسلامية او دين الاسلام

---

(١) معالم في الطريق فصل الاسلام هو الحضارة

(٢) محمد قطب في الندوة العالمية للشباب ـ المؤتمر الثالث راجع بحثه المنشور

(٣) في كتابه شروط النهضة

(٤) الحضارة الاسلامية ص ٢٨٨

مجموعة المفاهيم عن الحياة

ويفرق **تقي الدين نبهاني** بين الحضارة والمدنية فيعرف الاولى (بمجموعة المفاهيم عن الحياة) بينما تقتصر الثانية على الاشكال المادية للاشياء المحسوسة التي تستعمل في شئون الحياة .

من هنا فالحضارة الاسلامية (هي التي تقوم على اساس الايمان بالله) وعلى (اساس العقيدة الاسلامية) [1] .

هل يمكن تحديد معنى الحضارة بصورة تجريدية؟

ومن خلال هذه المفاهيم والتصورات عن الحضارة تتضح المعطيات الاساسية الكامنة وراء هذه التعاريف . فكل يسعى لايجاد الرابط الوثيق بين تصوره عن الكون والانسان والحياة وبين ما يسمى (الحقيقة الحضارية) ليصل في النتيجة الى تأكيد حضارية فكره وممارساته مُغَلِّباً عليهما الطابع الذي يريد .

ان الحضارة ـ كمصطلح ـ **ينبغي ان تحدد بمعزل عن الاطر الفكرية طالما ارتضينا ان تكون الحضارة مصطلحا** . . . ومن هنا كان علينا ان نحاول تصوير الحضارة كما هي . . . . بقطع النظر عن صواب او خطأ المعطيات الفكرية او الثقافية او الدينية لأمة من الامم . . . ذلك ان تحديد مفهوم الحضارة ـ على هذا المستوى ـ يساعدنا في النتيجة على فهم كثير من الامور .

التفرقة بين الحضارة والمبادىء

وأول ما ينبغي هنا ان نؤكده هو **ان الحضارة تفاعل . اي هي انعكاس لانشطة الانسان في هذا الكون . وهي ـ بمعنى أدق ـ صورة لممارساته المبنية على مبادئه وأهدافه وقيمه ومفاهيمه . اي ان الحضارة ليست المبادىء والاهداف بذاتها . . . فالمبادىء او القيم او التصورات تحمل معاني مصطلحاتها وهي التي توحي بممارسات الانسان المختلفة وعلى كل صعيد .**

اما الحضارة فهي نتيجة تطبيق تلك المفاهيم في ظرف او ظروف معينة ، وهي ايضا تفاعل الانسان بالكون عبر زمان محدود او ازمنة متعاقبة . . . ذلك ان المبادىء كالاسلام مثلا ، مجموعة قيم ومفاهيم عن الحياة تتضمن عقيدة وأمرا ونهيا وتنظيما لشئون الحياة المختلفة .

---

(١) في كتابه نظام الاسلام ٥٩

غير ان هذه المفاهيم ، ان لم تُمارس ، تغدو تراثا وكتبا قيمة ليس الا . . . .
والكلام المسطور لا يصح تسميته (حضارة) بل يُسمى باسمه ، اي (مبادىء) . . . او (افكار) حتى اذا ما ترجم الكلام الى واقع والامر والتنظيم الى فعل وممارسة اي الى وجود في عالم والى تفاعل في حيزٍ محدود ، ظهرت الحضارة حاملةً صفات التفاعل والتطبيق . . . عندها صح وصف الحضارة بالاسلامية وصح قولنا (الحضارة الاسلامية) .

وهذا يعني ان القيم وحدها دون تطبيق ليست إلاَّ ترفاً فكرياً لا يوجد حضارة **فالحضارة لا توجد الا بالتفاعل** .

ومن هنا يمكننا في ان نفهم لماذا جعل الاسلام الايمان به يقينا في القلب وعملا يدب في الحياة في آن معاً .

غير ان هذا التفريق بين مصطلحي الحضارة والمبادىء لا يسقط استخدام المقاييس في تقدير الحضارات وتقويمها . . . . فبقدر ما تكون المفاهيم صحيحة وسوية وملائمة للانسان ومُعِينةً له على الممارسة والانفتاح بقدر ما تكون الصورة ، اي التفاعل اي الحضارة مشرقة مضيئة . وبقدر ما تكون المفاهيم مجانبة للفطرة الانسانية بقدر ما تبهت الصورة حتى قد تستحيل الى ما يشبه الفولكلور او الكاريكتور .

من هنا يمكننا ان نقول :

ان لكل جماعة انسانية حضارة مهما كان مستوى هذه الجماعة الثقافي او العمراني ومهما كانت افكارهاوعقائدها ،ويبقى الفارق الوحيد بين تلك الحضارات مستويات الافكار والقيم ذاتها .

وعلى هذا ، يمكننا ان نصف الجماعات المستغرقة في البداوة بالجماعة ذات الحضارة[1] . كما يمكننا ان نصف الجماعات اليونانية والفرنسية والرومانية

---

(١) يقول ول ديوارنت في كتابه قصة الحضارة («الهمجي» هو ايضاً متمدن بمعنى هام من معاني المدنية لانه يُعنى بنقل تراث القبيلة الى ابنائه ـ وما تراث القبيلة الا مجموعة الانظمة والعادات الاقتصادية والسياسية والعقلية والخلقية . . .) .

والبابلية والفرعونية واهل الغرب الرأسمالي واهل الشرق الشيوعي . . . . بالجماعات المتحضرة . . . . وان كانت تلك الامم او لا تزال تؤمن بنظريات ومبادىء يُثبت العلم الواقع المتجدد فضلا عن الاسلام ، مدى مجانبتها للفطرة الانسانية وانحرافها بها نحو متاهات الظلم والضياع والدمار . . .

ذلك ان البطل في المعتقدات لا يحجب في ممارسة تلك المبادىء حركة التفاعل وبالتالي مصطلح الحضارة غير انه يكشف واقع تلك الممارسة ويعين على تقويم حضارتها ـ كما سنرى ـ

التصور الاسلامي للمصطلحات

وهذا التفريق بين الحضارة وبين صحة المبادىء او بطلانها يتجانس مع التصور الاسلامي للمصطلحات العامة . فالاسلام الذي وصف حياة العرب وكذلك حياة الامم المنحرفة عن شرع الله بالجاهلية ، منددا ببطل وزيف كثير من الافكار والمبادىء والعادات ، لم يبخل على تلك الحيوات بمصطلحات هي اقرب للقداسة وللفهم الديني السليم السوي . فالعبادة التي هي جوهر ذو ابعاد هامة ومتسامية مصطلح نعت الله به فعل اولئك الاقوامفقال: ﴿أرأيتم ما تعبدون انتم وآباؤكم الاقدمون﴾ ثم انه ـ سبحانه ـ وصف ممارسات المشركين حول البيت الحرام ـ التي لم تكن الا مكاء وتصدية ـ بمصطلح الصلاة ﴿ وما كان صلاتهم عند البيت الا مكاء وتصدية﴾ . . . ولو ان هذه الصور تدعو الى الاشمئزاز حيناً والى الاشفاق أحياناً اخرى . . . حتى إن صيغة ﴿الصبغة﴾ التي هي مجموعة المبادىء والمفاهيم والتصورات عن الحياة وردت في القرآن بقصد التفاضل بين صبغة الله الربانية الصافية وبين سائر الصبغات ﴿صبغة الله ومن احسن من الله صبغة﴾ .

وعلى هذا ، فان قلنا ، **الحضارة العربية ما قبل الاسلام** ، صح القول وجاز ونكون عندئذ قد أطلقنا المصطلح على الصورة العربية في زمن محدود دون تحديد الموقف من تلك الصورة .

اما عندما نقول **الحضارة العربية الجاهلية قبل الاسلام** نكون قد حددنا الموقف واوضحنا معطياتنا الفكرية ازاءها . وعلى هذا ايضا يمكن وصف صور الحياة الفرعونية والرومانية والاغريقية في القديم ، والغربية المسيحية والاشتراكية

في الحديث ، دون تردد او خوف ، بمصطلحات الحضارة لأن ذلك مفهوم اسلامي صحيح[1] .

***

تعريفنا لمصطلح الحضارة

وكتعريف واضح لمصطلح الحضارة بمعزل عن خلفيات ومعطيات فكرية ومبدأية يمكن ان نقول :

الحضارة مصطلح يعني تفاعل الانشطة الانسانية لجماعة ما ،في مكان معين وفي زمن محدود او ازمان متعاقبة ،ضمن مفاهيم خاصة عن الحياة . وهذا التعريف يوضح العناصر التالية التي تتكون منها الحضارة :

١) **الانسان** ، بكلياته ، محورُ اي حضارة وهو صاحب التفاعل بما يملك من انشطة وقدرات عقلية جسدية وروحية توجهها مجموعة المفاهيم والتصورات عن الحياة .

٢) **الحضارة تظهر مع الجماعة الانسانية** اي ان الفرد وحده لا يوجد حضارة والتجمع شرط التواجد الحضاري .

٣) **المكان** والبيئة التي يجري فيها التفاعل .

٤) **الزمن** عنصر اساسي في حساب تفاعل الانشطة وتحسس الوجود الحضاري .

ان هذا التعريف لمصطلح الحضارة ، يسقط سلبيات ويؤكد ايجابيات عدة منها :

- فهو لا يعترف بنظرية تفوق جنس على آخر . وهي نظرية تقول ان الجنس هو الدافع الحضاري وان بعض اجناس البشر تصعد وتتقدم بسبب ان جنسها مهيأ للتقدم بينما لا تتمتع اجناس اخرى بمواهب كافية للتقدم فتبقى عند حالات البدائية او الركود .

---

(١) غير اننا من الناحية التعليمية وبفعل التمايز ـ كما سنبين بعد ـ يمكننا ان ننشىء اجيالنا على امتلاك المصطلح والموقف من الاخرين بآن معا فنقول بوجود حضارات منها الحضارة الاسلامية واليها ننتسب ومنها الحضارات الاخرى التي هي حضارات الجاهلية (اي التي لا تلتزم بالاسلام) .

ان نظرية الاجناس هذه شائعة عند معظم الامم في الاعصر القديمة والوسطى ولا تزال قائمة عند اهل الغرب وخاصة غرب اوروبا والولايات المتحدة الى اليوم[1] .

- وهو لا يعترف ايضا ، بتفوق اللون الابيض وركود اللون الاسود وعدم قدرته على التقدم في الانشطة الانسانية .وضمن مفهوم التفوق هذا أباح الأوروبيون لانفسهم استرقاق السود واذلالهم والقضاء على الهنود الحمر سكان امريكا الاصليين . كما ان نظرية تفوق الجنس الآري الاوروبي اباحت لهم استعمار واستغلال خيرات الشعوب الاخرى .
- وهو يجعل الناس سواء في صنع الحضارة وفي التنافس من اجل زيادة قدرة التفاعل بغية ارتقاء اكبر للانسان التجمعي .
- وهو لا يجعل للبيئة اثرا حاسما في صنع الحضارة الا انه يجعل التفاعل والافادة من خيراتها مصدرا رئيسيا للحضارة وتقدمها .
- يعترف بالقيم محركا اساسيا وهادفا لانشطة الانسان .

تعريفنا للحضارة الاسلامية

وعلى ضوء تعريف الحضارة كمصطلح، وعلى ضوء المفاهيم الاسلامية وتصوراتها للكون والانسان والحياة ـ والتي سنستعرضها فيما بعد ـ يمكننا تحديد وتعريف الحضارة الاسلامية بقولنا هي :

تفاعل الأنشطة الانسانية للجماعة ، الموجدة لخلافة الله في الأرض ، عبر الزمن ،وضمن المفاهيم الاسلامية عن الحياة والأكوان .

ويجمع هذا التعريف بين مصطلح الحضارة العام وبين المفاهيم الاسلامية المكونة (لصبغة الحضارة) كما يظهر فاعلية الانسان ضمن الجماعة المسلمة التي تتفاعل بدورها مع مختلف الكائنات المحيطة بها (انسان ، وحيوان ونبات وعوالم) من اجل اقامة خلافة الله في الارض .

---

(١) حسين مؤنس في كتابه الحضارة، ص ٤٣ .

ثم ان هذا التعريف يتسع ليضم بين جوانبه حلقات الحضارة الاسلامية المتعددة والتي بدأت مع فجر التاريخ ، عبر الانبياء والرسل والمؤمنين بهم ، حتى الحلقة الاوسع وهي الحلقة المبتدئة بعصر النبي محمد ﷺ وما تبعه من تفاعلات واحداث .

وهكذا تغدو الحضارة الاسلامية الحضارة العالمية[1] . تضم بين ارجائها تفاعلات الامم والشعوب (المرسل اليهم) وتقبل في عضويتها العالم بأسره ، اسوده وأصفره احمره وابيضه ، عربه وعجمه، اوروبيه وامريكيه وتعمل لخدمة الانسان واسعاده ، ليكون مع سائر الاكوان المحيطة به في وحدة حضارية كونية تتسامى في تمجيد واحد وفي تسبيح أصيل لخالق الوجود كله .

سورة العصر وعناصر الحضارة الاسلامية

وفي القرآن سورة انتبه الصحابة الابرار الى معانيها فأوصوا بعضهم بتعهدها وبقراءتها عند اللقاء والافتراق ، حتى قال عنها الامام الشافعي : لو لم تكن في القرآن الآها لكفت الناس . . . ذلك انها بحق تمثل معنى الحضارة الاسلامية ، في مفاهيمها وعناصرها . . . تلك هي سورة العصر ﴿ والعصر . ان الانسان لفى خسر . الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصلوا بالحق وتواصلوا بالصبر﴾ .

فالسورة - كما ترى - حوت عناصر الحضارة كلها بوضوح كامل : الانسان - التجمع (اسلوب الجمع في السورة الذين آمنوا وعملوا) - الزمن - الصبغة ، كما تضمنت التفاعل الحضاري المستمر : العمل والتطبيق والتنفيذ للمبادىء والمفاهيم . . . وفي ذلك اشارات عميقة توضح - ما سنوضحه فيما بعد - ان تعطل التنفيذ يعطل الحضارة ويجعلها في حالة توقف بانتظار استئناف الالتزام بالتطبيق الكامل وعلى صعيد الامة .

---

(١) ومن هذا المفهوم ينبغي ان تُعاد كتابة التاريخ وتدريسه ، فتاريخ الايمان تاريخ واحد تبدأ حلقاته الاولى مع فجر الانسان الاول ثم تتالى مع كل امة مؤمنة وبذلك نكون قد اقتبسنا من القرآن الكريم عبرة هامة من قصته احاديث الامم الغابرة ووقائع امم الانبياء وجماعات المؤمنين . . . وانني آمل ان اوفق الى مقدمات اولى في هذا الجهد التاريخي الكبير !!!

الفصل الثاني

ضوابط الحضارة الإسلاميّة

باعتبار ان الحضارة ممارسة لمجموعة المبادىء والمفـاهيم عن الحياة في مكان معين وفي زمن او ازمان ، وتفاعل الانسان بالاكوان المحيطة به من أجل سعادة هذا الكائن البشري ، وفق تصوره الايديولوجي الخاص ، وجب على (مجموعة المبادىء والمفاهيم) هذه ان تعالـج المشـكلات المتواجـدة في عنـاصر الحضـارة الاساسية فتواجهها بضوابط تكون من جهة قادرة على (حل تلك المشـكلات) ومن جهة اخرى على المحافظة على مسار الحضارة التصاعدي .

ان الضوابط الحضـارية هذه لا تستعـار بل هي ذاتية ، تنبـع من مجموعـة التصورات العقيدية التي هي خلفيات الحضارة . . . وبقدر عمق هذه الضوابط بقدر ما تستطيع الحضارة مواجهة التحديات والتغلب عليها .

ان الحضارة التي تفتقد تلك الضوابط هي ، بلا ريب ، حضارة حملت في طياتها سبب اندثارها وزوالها وتلاشيها ذلك لأنها عدمت اسباب الحياة والتصاعد والارتقاء .

وتتلخص هذه الضوابط بالعناوين التالية[1] :

١) العقيدة وتوجهاتها الاساسية الفكرية والروحية والاخلاقية .

٢) الانظمة والمبادىء الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

٣) الدولة مفهوما ومقومات .

٤) القيادة المتفتحة .

٥) اللغة الذاتية المبدعة .

---

(١) حدد ول ديوارنت صاحب موسوعة قصة الحضارة عناصر الحضارة (باربعة : الموارد الاقتصادية والنظم السياسية والتقاليد الخلقية ومتابعة العلوم والفنون) .

الحضارة وذاتية الضوابط

وباعتبار ان هذه الضوابط لا يمكن ان تتجانس الا اذا خرجت من مصدر واحد ، بحيث تتأمن الوحدة فيما بينها والانسجام . . . وهما شرطان اساسيان لتفاعل هذه الضوابط فيما بينها تأمينا لمسار الحضارة . . . ادركنا سرا من اسرار افول واندثار كثير من الحضارات القديمة التي لم تكن تملك اكثر هذه الضوابط .

فهي ـ اي الحضارات ـ عاشت بالقدر الذي امتلكت فيه ضابطا او اكثر ، واجهت به المشكلات الحضارية المتفجرة . . . حتى غلبتها تلك المشكلات فاندثرت وزالت ، ولولا معالمها الاثرية من حجر ومقولات لما تحسسها العالم من بعدها ، كما ان مفهوم الضوابط هذا يفسر لنا رجرجة الحضارة الغربية المسيحية اليوم وصرخات الاستغاثة التي تطلقها .

وقد حاولت الحضارة الغربية ، منذ عصر النهضة ، في اوروبا ، من ايجاد هذه الضوابط ، ومن محاولة تأمين الوحدة والانسجام بين الضوابط المصطنعة تلك املا في اضفاء السرمدية او الاستمرارية على حضارة الغرب واطلاق عبارة (الحضارة المثلى) عليها لأنها ـ على حد تعبير ارنولد توينبي ـ (متصلة بالشرارة الالهية الخلاقة) .

محاولة ردم الفجوات في الحضارة الغربية

فانكبت النخبة الطليعية في اوروبا ، وعبر عصور متلاحقة ، على محاولة ردم الفجوات في جدار الحضارة المكون للضوابط ، فاتخذوا من تراث الاغريق والرومان مصادر عطاءاتهم وطوروها عبر نظريات ومكونات . منها ما هو ديني مستجد ، ومنها ما هو بنتيجة النظر والعقل الانساني، ومنها ما هو تلبية لاحتياجات الانسان الثابتة . فكانت الافكار والفلسفات التي تعالج الانسان والكون والحياة مع ما تحمل تلك التصورات والمفاهيم من تناقضات وتطلعات ، فاستقرت الحياة الغربية على انماط خاصة من التفكير شمل مختلف جوانب الوجود الحضاري ، موجدا الضوابط الحضارية ، محاولا بها مد سيطرة فكره واسلوبه وانماطه الى مختلف حضارات الدنيا ، في جدية واضحة ، وضمن ارادة دثر تلك المعالم ، ملزما العالم على هضم معطياته وتصوراته ، آملاً من وراء ذلك ان يكون استقرار ضوابطه وامتدادها ايحاء بخلود حضارته وبجدارتها ان تكون وحيدة وعالمية .

ذلك هو ملخص سريع لافكار ارنولد توينبي وهانز كوهن في كتاباتهم حول الحضارة الغربية .

وهناك فارق كبير بين ان تكون الضوابط مصطنعة من مجموعة افكار ومعطيات متضاربة لا وحدة فيها ولا ترابط ، وبين ان تكون ذاتية انبعثت عن المبادىء ذاتها ، بل هي العقيدة اياها ، اي ان الحضارة انبثقت ومعها ضوابطها المختلفة فلا هي تصنعتها او اصطنعتها ، ولا هي استعارتها او استعانت بمصدريات اخرى كي ترسم لنفسها معالم حدودها وضوابطها .

الاسلام امتلك ذاتية الضوابط الحضارية

والاسلام وحده بين سائر الاديان والافكار والتصورات الذي امتلك ذاتية الضوابط ووحدتها وانسجامها ، بشكل يدعو الى تأكيد عظمة هذا الدين وإلى منحه وحده عبارة الحضارة المثلى لاتصاله هو وحده بالشرارة الالهية الخلاقة ـ على حد تعبير توينبي ـ فلا غرو في ذلك ﴿ فان الدين عند الله الاسلام﴾ و﴿ اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا﴾ .

الدورة الحضارية

وفي محاولة لتعمية هذا المعنى الدقيق حاول كثير من المفكرين والفلاسفة والباحثين ـ ومن المؤسف ان يكون بينهم علامتنا ابن خلدون الذي تراءى له الامر كذلك ، لاستقراء ناقص وتعليل مبتور ـ حاول هؤلاء ان يجعلوا للحضارة دورة ، لا مفر من المرور بها والانتقال عبر مراحلها . فالحضارة تولد ثم تترعرع ثم تشب ثم تكهل ثم تموت . فهي كالانسان لها عمر معلوم ثم بعد ان تموت تكون قد انبثقت في مكان آخر ، حضارة اخرى . وهكذا فان (الدورة الخالدة) كما اسماها نيتشه هي قدر الحضارات .

ولئن جاز لابن خلدون ان يعطي الحضارة عمرا ـ كعمر الانسان ـ الا ان هذا لا ينطبق على مالك بن نبي ـ الذي ادرك هذا القرن ـ وكان من المفروض ان لا يقبل بالدورة الحضارية وعلى الاقل ان لا يطبقها على الحضارة الاسلامية .

جبل الحضارات

وبعد ان امتلكت الحضارة الغربية مجموعة الضوابط ضمن مجموعة المفاهيم عن الحياة ، وفق التصورات المصطنعة والمتضاربة ـ كما ذكرنا ـ جاء تفسير آخر لمراحل الحضارة فاشبهوا الحضارة العالمية بجبل اشم له درجات .

فمن الحضارات ما تبقى في السفح ومنها ما يرتقي الى درجات ومنها ما يتوقف بعد صعود ومنها ما يصل الى القمة فتثبت فيها تبث اشعاعاتها المضيئة تظلل الانسانية بسعادة لا تنقطع[1] .

ومن ذهب هذا المذهب في تفسير الحضارات كـ (سان سيمون) كان يريد ان يزعم ان الحضارة الغربية قد تكاملت عدتها فغدت في القمة وهي باقية هناك في حالة خلود واشعاع مستمر (ارنولد توينبي وهانز كوهن) .

وفكرة (الجبل) هذه أقرب للتصور والاستقراء من فكرة (الدورة الخالدة) غير ان اختلافنا ـ مع اهلها ـ يكمن في الحضارة الجديرة بالارتقاء والاستمرار والخلود والاشعاع ؟ تلك التي ملكت ذاتية الضوابط (الحضارة الاسلامية) ام تلك التي صنعت الضوابط بمعطيات متضاربة ؟ (الحضارة الغربية المسيحية ذات الاصول الاغريقية الرومانية) .

نقول ذلك مع تسجيل مبادرتنا ـ هنا ـ مرحليا ـ بالاعتراف بتوقف الحضارة الاسلامية عن العطاء لتعطل اصاب اكثر ضوابطها ـ كما سنبين ـ وان كنا نسارع هنا ـ ايضا ـ **لتأكيد خاصية التوقف عن العطاء في الحضارة الاسلامية وهي عطاؤها وبكثرة ، افرازات جماهيرية تتجدد دوما وتتحرك لاخراج الحضارة الاسلامية من توقفها الى مرحلة استئناف العطاء من جديد .**

هذه الافرازات هي سر ثبات الحضارة الاسلامية امام الهجمات الماكرة والتغلب على الاندثار وفق نظرية الدورة الخالدة ـ على حد تعبير نيتشه ومالك بن نبي ـ او الدورة الناقصة على حد تعبيرنا وهو ما سنبينه فيما بعد .

***

---

(١) حسين مؤنس في كتابه الحضارة .

● الانسان والحضارة

الانسان الثابت عبر الزمن

وكما قلنا في تعريف الحضارة ، ان عناصرها تنحل الى انسان (بكل ما في الانسان من معنى الجسد والروح والعقل) **وبيئة يعيش فيها** - بصورة تجمع - ويتعامل معها ، **وزمن** يجري فيه التفاعل ضمن **مجموعة المفاهيم** التي اعتقدها الانسان عن الحياة .

وهكذا فإن الانسان هو احد ابرز العناصر بل هو اهمها (اذ هو الذي يستطيع توجيه الوقت وتوجيه التراب او هو الذي عليه الافادة من الكون في زمن محدود او حد معلوم)[1] ولولاه لما وجدت حضارة ولما أدرك الكون ومعاني الحياة . فالحضارة من اجله ولإسعاده ، كما ان القيم كلها له وفي سبيل تنظيم وجوده وتحقيق غاياته الاصيلة في الوجود .

والانسان ،هو واحد لم يتغير ،يتمتع بذات الخصائص والمقومات من عقل وروح وغرائز وجسد واحتياجات وادراك لما حوله ، وان اختلفت هذه المميزات من انسان الى آخر ومن أمة الى اخرى ، فترتقي مقوماته تلك او تجمد عند درجات البداية او ترتكس الى أدنى من ذلك ، فتصقل او تهمل ، وفق حجم التطلعات العليا .

وقد بات مدركا ان الانسان عبر التاريخ والامم ثابت لا يتغير ، فهو منذ وجوده الاول والى ان ينتهي يملك خصائص واحدة ومقومات واحدة . هو انسان بالحس والشعور ، بالطبائع والروح ، بالاشواق والضرورات ، بالآمال والآلام : ولا عبرة بعد ذلك بدرجات الترقي في هذه المقومات ، الا انها موجودة - وهذا هو الاصل - في كل انسان ، في اية بيئة وجد فيها وفي اي زمن خلق فيه ،

---

(١) كتابنا الطريق الى حكم اسلامي .

وسواء كان لونه ابيض او اسود او سكن الخيمة او القصر ، البادية او المدينة ، استخدم القطار ام اكتفى بالدابة والحصان . . . فتلك امور جانبية ـ مظهرية لا تؤثر ـ فيما اذا عزلت عن معطيات فكرية وفلسفية ـ في الجوهر . الا بمقدار محدود . فالانسان الواحد ذو الشكل الجسدي الواحد والمعطيات والخصائص الواحدة ، خلق (في احسن تقويم) .

هنا تختلف النظرية الاسلامية عن النظريات الاخرى . فتلك تجعل الانسان مختلفا عن بعضه في جنسه ولونه فتختار الابيض ـ من الالوان ـ لتستذل الاسود ولتبرر القضاء على الاحمر وتفاضل ، ضمن اللون الواحد (الابيض) الجنس الاري وتجعله الاول في جدارة الحياة والسعادة . . .متبرّزةً بذلك اقدام الاوروبين على نهب ثروات الشعوب وخيراتهم .

وفي سبيل تكامل هذهالنظرية وتبريرها استفاد مبدعوها من الظروف المكانية والبيئوية التي وجد فيها الجنس الاسود ليثبتوا مدى تخلفه وعدم تمكنه من صنع الحضارة . حتى ان بعضهم تجرأ ليسقط الجنس الاسود من قائمة اجناس البشر محلين صيده والمتاجرة به .

وكما استغلوا هذه الظواهر لاثبات الفلسفة التمييزية العنصرية في الانسان حاولوا ان يربطوا بين الانسان ومكتشفاته ، فاسقطوا عن الانسان الاول خصائصه الانسانية وصوروه لاهثا وراء النار والادوات الفخارية والمعدنية فعرفوه بها بدل ان يعرفوها به حتى ان (العقل الانساني) وهو من اكبر النعم الالهية التي كرمه الله بها ﴿ ولقد كرمنا بني آدم﴾ جعلوه مكتشفا انسانيا ، بقي الانسان عشرات الالوف من السنين دون ان يدرك ان له عقلا حتى اذا ادرك ذلك (كان العقل اول مخترعاته) وبعدئذ (خطا الخطوة الاولى نحو الحضارة)[1] .

النظرية الاسلامية في الانسان تجاوزت العقد

اما النظرية الاسلامية فقد تجاوزت هذه العُقَد التي ألبست زورا اثوابا علمية جاء العلم بعدئذ ليتنصل منها ـ كما هو الحال بالنسبة لتفاضل الاجناس والالوان ـ وبالتالي ليثبت النظرية الاسلامية في أن البشر سواء يملكون خصائص

---

(١) حسين مؤنس في كتابه الحضارة ص ١٥

واحدة ومقومات واحدة وخلقوا في احسن تقويم ، لينطلق الانسان بعدها الى تحقيق سعادته ودوره في الحياة والوجود ، فيترقى او ينـزل الى تسفل مخيف وهبوط بشع ولو انه ملك المكتشفات والمخترعات .

أليست وسائل التدمير وادوات التخريب التي تملكها الامم المتحضرة والتي يخترعها الانسان لتدمير نفسه ، كما المستويات الاباحية والفوضى الخلقية في ارقى المجتمعات المدنية أليست هذه وتلك توضعان في خانة الهبوط البشع وفي اسفل سافلين . . .

الانسان عاقل من أول يوم

ان النظرية الاسلامية جعلت الانسان عاقلا ومدركا للاشياء من اول يوم خُلق فيه ﴿ وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئوني باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين﴾ ثم جاء التكليف في الدنيا ﴿ قلنا اهبطوا منها جميعا فاما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ .

بل ان الصراع بين آدم والشيطان كان مبنيا على عقل الامور وادراك ، ابعادها ومخاطرها وسلبياتها وايجابياتها . كما ان الصراع بين قابيل وهابيل اخذ هذا الطابع ، فعند احدهما سيطر العقل والهدى وعند الاخر سيطرت الغريزة والهوى حتى اعمياه عن عقل كيف يواري سوءة اخيه فجاءه الطير معلما فيصرخ ﴿ يا ويلتى أَعَجَزْتُ ان أكونَ مِثْلَ هذا الغُرابِ فَأُواري سَوءَةَ اخي فَأَصْبَحَ من النادمين﴾ وتقرر النظرية الاسلامية (ان الروح الالهية التي حلت بالانسان الاول النفخة الربانية المباركة ﴿ ونفخنا فيه من روحنا﴾ هي التي أوجدت في الانسان (القدرة الخاصة) المعبرة له عن كل خلق الله : ملائكة او حيوانا او جمادا وهي التي أوجدت فيه « الوعي » وعي الذات ووعي الكون والحياة وهي التي منحته « الادراك » وكل ما يتصل به من خصائص ومقومات .

نشأة الوعي في الانسان

« لقد نشأ الوعي في الانسان ونشأ الادراك ،لحظة ابداع جسد الانسان روحا من الله فاستحالت عندها مادة هذا الجسد الى ذات عاقلة مفكرة مدركة مميزة واعية تملك « القدرة » على معرفة ذاتها ومعرفة ما حولها وتملك « القدرة »

على انشاء رابطةبينها وبين ما ترى، وعلى «التمييز» بين هذه الأشياء بدقةوعمق هذه القدرة هي روح منحها الله سبحانه لهذا الانسان وكأنها من علم الله الذي خص منه ما شاء لهذا الكائن العجيب تكريما له وتشريفاً وتأهيلاً للقيام بالدور المقدس الذي رسمه له ﴿ واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة﴾ .

« فآدم ـ كما اسلفنا ـ الانسان الاول استطاع ان يسمي الاشياء باسمائها اي ان « يعيها » بعد ان تعرف عليها وبمعنى آخر ان « يميزها » بعد ان « عرف » صفاتها وخصائصها(*) » .

ولا ريب ان هذا « الوعي » او الادراك او بمعنى شامل « المعرفة » ترتقي كلما تأصلت العلاقة بين الانسان وبين ما يحيطبه : فكلما احسن الصلة بما حوله من الوجود وأقام الارتباط المتين كلما تعمقت « معرفته » وتأصلت لا تخشى دركا ولا حدا .

الوعي والروح والمادة

من هنا كان الوعي « خاصة » من خواص الروح لا كما يقول انجلز (خاصة مادة عالية التنظيم)[1] .

والفارق بين النظريتين الاسلامية والبشرية هي ان الاولى **تجعل الانسان عاقلا من اول يوم وتنيطبه التكليف وتمنحه الطريق** ﴿ اما يأتينكم مني هدى﴾ واما النظريات الفلسفية والتاريخية فتجعله ـ في احسن الحالات ـ وحيدا في اكتشاف ادراكه وطريقه وسعادته ومن ثم توكله بأمر نفسه وعالمه يُوجِدُ لهما ما يشاء من نظريات ونظم . . .

نقول في احسن الحالات لأن اسوأها يجعله قردا او ذا صلة بالقرود ثم يمنحه درجة الانسان بعد حقب طويلة من الازمان والاعصر .

---

* يقول ول ديورانت في كتابه قصة الحضارة الجزء الاول ص ١٢٢ (كانت الكلمة بداية الانسان . . . فلولا هذه الاصوات التي نسميها اسماء كلية لأنحصر الفكر في الاشياء الجزئية . . . واغلب الظن انه لولا هذه الاسماء الكلية لما استطاع الفكر ان يدرك الانواع باعتبارها متميزة عن الاشياء الجزئية ولا ان يدرك الصفات متميزة عن اشيائها التي تتصف بها ، ولا ان يدرك الاشياء مجردة عن صفاتها . . . .) .

(١) راجع كتابنا الطريق الى حكم اسلامي .

وبقطع النظر عن هذه الخلفيات الهامة في الفارق بين النظريات الا ان ، المهم اليوم ان **النظريات غير الاسلامية بدأت تتراجع لتنسجم مع النظرية الاسلامية فقالت بـ** (ان الانسان جنس قائم بذاته . . . ولا معنى والحالة كذلك للاصرار على ربط الانسان بالقردة او بالقردة العليا) .

وان (هذا الانسان مهما اختلفت اجناسه يختص بخصائص جسمية وذهنية . . . مكنت له . . . في رحلته الطويلة مع الحياة . . . . .)[1] .

***

● الحضارة والنظام

الانسان الثابت في خصائصه محتاج الى حضارة ذات معطيات ثابتة

من هنا يمكننا ان نقرر مع النظرية الاسلامية باطمئنان كامل « اذا ما استقرأنا التاريخ ودرسنا الانسان في كل عصر من العصور ـ على ضوء النظرية الاسلامية ـ لوجدناه ـ كما ذكرنا ـ ثابتا في الخصائص والمقومات » .

وانطلاقا من هذا التقرير يمكننا ايضا ان نقرر ان هذا الثبات في الكينونة البشرية للانسان بحاجة الى ثبات في المنهج او الى حضارة تضرب بجذورها الى معطيات ثابتة الى تصور ثابت لا يعرف الجمود . . . او كما قال سيد قطب : (تصور له حركة ضمن اطار ومحور ثابت) والثبات في المنهج مع المرونة اللازمة لتطور الحياة والاشكال امتلكه الاسلام ويكاد يكون وحيدا في هذا المجال .

والنظرية الاسلامية صاحبة هذا المنهج منحت المؤمنين بها فكرة كلية عن الكون والانسان والحياة ، متسقة دون تصادم ، عميقة دون تعقد ، واضحة دون اي لبس او غشاوة وهكذا غدت معالم الحياة : الذات الانسانية والكون العجيب ، مكشوفة جلية .

في تمام العبودية تمام

وهذه المبادىء الثابتة المستقرة التي تتفق مع غاية الوجود الانساني ـ الهادف الى تحقيق خلافة الله في الارض ـ تتلاحم مع الانسان وتعتقه من كل اسار الا عبودية الله التي هي علة الوجود ـ وفي تمام العبودية لله تمام الحرية كما يقول ابن

---

(١) حسين مؤنس في كتابه الحضارة ص ١٨و١٩ .

خضرويه اذ ان الانسان مع غير الله حر ،والحرية والوجود كل متحد ... هذه الحرية التي تسمح للانسان بكل حركة وبكل تطلع فهو غير مقيد بشيء الا بالقيم التي جاءت من اجله مقررة له هذا الوجود الحر وهذه الكرامة الرفيعة .

ويرسم الاسلام العقيدة المطلقة بالله سبحانه وهي عقيدة لا تعقيد فيها ولا تشويه ، مقررا إفْراده بالوحدانية وبالخلق وبالارادة وبالعلم وبصفات الربوبية والالوهية الكاملة حتى يغدو الانسان الحرمطمئناًالى عبادة اله فرد صمد راضيا به مقبلا عليه راغبا بتوجيهاته ومبادئه .

والى جانب المبادىء الاساسية المتعلقة بالعقيدة وبتصورات الكون والانسان والحياة جاءت الانظمة الاسلامية تكفل ضمان تنفيذ الاصول العقيدية تلك في مجالات الحياة المختلفة « تربط » بينها برباط اصيل متين .

عملية ضبط الحياة بنظام واحد

« ان عملية ضبط الحياة في نظام متسق متفق مع عمق التصور ومنسجم مع خصائص الانسان هي ادق من الربط نفسه ، فالنظام مسؤول عن استمرار الربط ومنع الانحراف ، ومسؤول عن بقاء الناس في الخط المستقيم وعن تأصيل ابعاد التصور والمفاهيم فيهم وفي اجيالهم الصاعدة ، وايضا هو مسؤول عن نشر هذا التصور في العالم حتى يستقيم الناس جميعا ـ ان امكن ذلك ـ على امر واحد وعلى منهج واحد وعلى حضارة واحدة » .

ولا يمكن ان تستقيم حياة مجموعة من الناس الا عندما تكون انظمتهم في الحكم والسياسة والاقتصاد والاجتماع نابعة من تصورهم للكون والانسان والحياة ولا يمكن ان يوجد الانسجام بين الناس وبين انظمتهم الا عند وجود صلة روحية بين الاثنين : (تعارف يضرب بجذوره الى الاعماق) .

المرونة والثبات فِي الانظمة

ومن الشروط الاساسية في الانظمة ان تكون مرنةهذه المرونة التي تضمنها القيم التي جاءت بهذه الانظمة . فباعتبار ان هذه الانظمة تخص الانسان في كل زمان ومكان كان لا بد لها من ان تراعي عوامل التغيير والتطور ضمن فهم دقيق وشامل لمجريات الانشطة الانسانية . وكما امتلك الاسلام العقيدة الواضحة والتصور البسيط ، امتلك ايضا انظمة تكفلت ثبات تصوره من جهة وتجسيد فكره العالي بواقع حياتي سليم . ومن اجل ذلك كانت الانظمة

الاسلامية في كل ما دَقَّ من الحياة وما عظم .

ان الانظمة الاسلامية التي سادت ساحة الانشطة الانسانية وضعت بناء على معرفة اصيلة بحاجات الانسان وامكانية تطور هذه الحاجات عبر الزمن . الا ان هذا لا يعني ان انظمة الاسلام متطورة فتتكيف مع الواقع أياًّ كان دونما اعتبار لأصل ثابت . ان الانظمة الاسلامية بوجه عام ثابتة تتضمن الاسس التي لا حيدة عنها ولا خروج الا انها ايضا مرنة فيما تبقى . . . . في القضايا القابلة للتطور والتغيير في الاشكال التي من المفترض ان تتكيف في واقع او ظرف معين .

« وبهذا تكون الانظمة الاسلامية ـ وحدها دون سائر الانظمة ـ قد جمعت الثبات في الاسس ، والمرونة في التكيف ، اي انها جاءت منسجمة مع التركيب الانساني » . وهي قد **تميزت بالتفصيل في جوانب الحياة غير المتغيرة** كالاحوال الشخصية وشئون العائلة **وبإجمال غير موجز** ضمن قواعد مرنة لجوانب الحياة الاخرى القابلة للتطوير كالاقتصاد والاجتماع والمال والشورى ومختلف انظمة الدولة .

الوحدة بين التوجيه والتشريع

« ان الانسان في اي زمان ومكان ـ يستطيع ـ بسهولة ان يعتمد على الانظمة الاسلامية الحياتية او بعبارة اخرى ان يسلم لها فتمده هذه بصورة دائمة باسباب النجاة وبمعطيات الاطمئنان وبأصول الحضارة المثلى » . وليس من قبيل الصدفة ، وقد ربط الاسلام انظمته بفكرته الشاملة عن الكون والحياة والانسان وبوظيفة هذا الانسان في الوجود ، ان يأتي القرآن بقواعد التشريع وبمبادىء انظمة الحكم والاقتصاد والاجتماع في طيات آيات التوجيه فكان ذلك **اشارة ربانية خالدة الى ضرورة احكام الصلة بين التوجيه والتشريع** .

ان هذه الاشارة لتؤكد حقيقة طالما غفل عنها الناس واصحاب النظريات الاخرى ، وهي الوحدة العميقة بين التوجيه والتشريع وعدم الفصام بينهما ذلك ان هذين المعلمين هما الضابطان الأساسيان من ضوابط الحضارة الصافية لاستمرارها في عطاء لا ينضب[1] .

***

(1) كتابنا الطريق إلى حكم اسلامي ص ٣٩ وما بعدها .

الدولة مفهوم ومعطيات

وفي هرم الضوابط الحضارية تأتي الدولة ضمن مفهوم ومعطيات اصيلة ترعى الانسان وتكفل تجمعه وتسهل له معايشه ، وتفسح المجال رحيبا لتحقيق التفاعل المستمر بين الانسان والبيئة والاكوان ، محققة في مجملها ، الامن والعدل والسعادة والاستقرار والكفاية ، **وهي صفات اساسية في مقياس حضارة من الحضارات** . فالحضارة التي تعجز عن تحقيق هذا المقياس تكون قد تعرضت لاقسى امتحان ينتهي بدمارها وازالتها من الوجود ان كانت قد فقدت ايضا الضوابط والعوامل الاخرى .

وللدولة كضابط حضارة ، مفهوم خاص في الاسلام ، يميزها عن الدولة السياسية المتعارف عليها والتي أصّل نظريتها « روسُّو » في عقده الاجتماعي من ان الناس قد تعاقدوا فيما بينهم على انشاء دولة تكون من مقتضياتها ان تسير وفق ارادة الشعب او اغلبيته فهي ـ اي الدولة ـ مدينة لهم بوجودها . ثم تطور مفهوم الدولة ليصبح دولة الحزب حيث يُسيرّ الحزبُ المجتمع كما يراه هو او كما يراه متنفذوه ثم جاء التصور الماركسي للدولة الذي يقول بحتمية زوال الدولة في النهاية لان الناس ، عندما يصبحون شيوعيين ـ يُسيرّون انفسهم بانفسهم ولان الدولة ـ في النتيجة ـ مظهر رأسمالي يقوم على القهر والاكراه ولتحقيق مطامع الدولة الغنية[1]

الدولة في النظرية الاسلامية

اما النظرية الاسلامية فتعتبر الدولة امرا لا يخضع لمقررات الاكثرية والاقلية ، وهي موجودة حكما ضمن مجموعة المفاهيم والتصورات عن الحياة . اي ان الدولة في الاسلام **لم توجد بتعاقد بين الناس وانما وجدت بفضل الشرع نفسه** الذي ارتضاه الناس دينا واسلوبا في الحياة . فوجود الدولة غير مدين للناس

---

(١) يقول ول ديورانت في كتابه قصة الحضارة (ان الحروب هي التي تخلق الرئيس وتخلق الملك وتخلق الدولة . . . فالدولة امها الملكية وابوها الحرب . . .) ويقول سَمْنر Sumner (ان الدولة نتيجة لقوة وهي تظل قائمة بسند من القوة) ويقول نيتشه (ان جماعة من الوحوش ، الغزاة السادة ، بكل ما لها من انظمة حربية . . . تنقض بمخالبها على طائفة كبيرة من الناس، ربما فاقتها من حيث العدد . . . لكنها لم تتخذ بعد نظاماً يحدد اوضاعها . . . ذلك هو اصل الدولة) .

او للشعب بل مدين للشرع من اجل هذا كان على الدولة ان تخضع للشرع لا للشعب وعليها ان تسير وفق المصدرية العليا .

ويتلخص مفهوم الدولة ايضا ان الانسان بالتزامه الاسلام ارتبط بعقد مع الله سبحانه وتعالى ولهذا العقد شروط وموجبات وبدل . . . . فمن شروط العقد وموجباته ان يؤمن الانسان بالله ايمانا عميقا معترفا بألوهيته وحاكميته خاضعا لكل امر ملتزما بكل نهي يصدر عنه . وبدل هذا العقد الذي تعهد الله به في الدنيا منهجُ حياة كامل يضيء الطريق ويوصله بطمأنينة وهناء الى سعادة متكاملة وحضارة مثلى . . . . ومن اجل تنفيذ هذا العقد وايصال البدل من الله كاملا كان لا بد من الدولة أن تشرف على استمرار التراضي وتعين على الالتزام بمضمون العقد . . .

وقد جاءت الدولة بأمر من الله . فالله سبحانه لا يعطي البدل ـ الذي هو منهج الحياة ـ الا عبرالدولة ، والناس المؤمنون لا يقدرون على تنفيذ عقدهم مع الله الا من خلال الدولة .

ومن هنا تحتل الدولة دور الوسيط بين الله سبحانه وبين الناس . ومن اجل هذا كانت الدولة لله ـ جلَّت حكمته ـ وللناس . ومن هنا تغدو الدولة في الاسلام ضرورة كبرى وحتمية لا مفر منها ولا تستقيم الحياة بدونها .

الحضارة لا تصنعها الدولة

ولا يعني قولنا ان البدل لا يظهر الا مع الدولة ، ان الدولة هي التي تصنع الحضارة باعتبار الحضارة انعكاس لممارسة المفاهيم . فالحضارة ليست شأنا للدولة وانما هي شأن الناس الذين يتفاعلون ويمارسون فيأتيهم البدل تصعيدا في خط الحضارة حيث الامن والعدل والكفاية والرفاه . وهي ـ في المفهوم القرآني ـ بركات من السماء والارض للذين يستقيمون على أمر الله . ﴿ ولو ان أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾ . فبكل وضوح وبكل حتمية تطلق البركات في كل شيء بركات في انفسهم ووجودهم ودولتهم في انتاجهم وحضارتهم بركات لا تنقطع ولا تنغلق مفتوحة على مصراعيها . تعطي دون حساب وتمد الناس باسباب الحياة والحضارة والتقدم وتطلقهم في خط الحضارة التصاعدي .

الدولة تنمو في خط تصاعدي

ان الشرط الوحيد لكل تلك المعطيات الدفاقة استمرار المجتمع على نهج الله ، الشرط هو الاستمرار وعدم الانحراف فإذا وقع الانحراف توقفت الدولة عن ايصال البدل واصيبت الحضارة بانتكاسة كبرى .

فالدولة اذن ـ من حيث المبدأ ـ تنمو في خط تصاعدي وتغدو قائدة الحضارة الاسلامية تقود المجتمع الانساني الى رعاية ربانية حانية﴿ بركات من السماء والارض﴾ . . . **وهذه الحتمية هي الاصل في بناء الدولة وهي التي تحفظ الدولة كضابطة حضارة** . يقول الدكتور حسين مؤنس في كتابه (الحضارة) (ص ١١) : (ان الاطار السياسي السليم هو ضمان كل تقدم وبدونه لا يمكن اضطراد مسيرة الحضارة ، ولو ان المسلمين التزموا بالنظام السياسي المستقي من شريعتهم وسنة رسولهم لما انتكست حضارتهم ولا تدهور مجتمعهم قط) .

***

● دور القيادة الراشدة في صنع الحضارة :

ويأتي في قمة هرم الضوابط الحضارية القيادة الراشدة الواعية وهي القيادة التي تدرك مسئولياتها في تصعيد الحضارة ضمن المسار الاصلي فتعين على تفتح الكفاءات وتدريبها في سبيل ضمان استمرارية العمل الحضاري المنتج .

والقيادة هنا كل مسؤول تتفاعل معه الدولة والأمة بدءاً بالإمام او الرئيس الأعلى وانتهاء بالشرطي مرورا بكل المكونات القيادية الاخرى . غير ان الاهم في القيادة هم النخبة او الطليعة من رؤساء ومفكرين وعلماء فهؤلاء يملكون من التأثير على سائر افراد الأمة ما يجعلهم بحق محط المسؤولية الاولى عن تلكؤ الاعمال الحضارية او تباطؤ التصعيد الحضاري .

ان وجود النخبة او الصفوة القائدة في محطة المسؤولية الاولى والاهم لا يناقض نظرية ﴿ كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته﴾ بل ان النظريتين تتكاملان بشكل مدهش ورائع من اجل ضمان استمرار الصعود الحضاري وعدم التوقف .

النخبة و المسؤولية الاولى

فالنخبة ، عندما تجد قاعدة تتجاوب وتدرك المسؤولية وتبعاتها بإمكانها ان تترجم تطلعاتها الى واقع ملموس . كما ان القاعدة الواعية تتمكن من محاسبة القيادة الراشدة ، فتدرك النخبة ان هناك من يناقشها الحساب ، او بتعبير آخر هناك وعي حضاري عند الجماهير لا يمكن تغافله او تجاهله .

ولا ريب أن أعباء ومسؤوليات التوجيه والابتكار والنظر الى المستقبل والتطلع الى الاعلى تلقي بثقلها على كواهل النخبة والصفوة وبقدر ما يكون شعور الطليعة بضخامة الاعباء شعورا مرهفا وبقدر ما تواجهه النخبة بتصورات سليمة وبعقليات متفتحة ،بقدر ما تتمكن هذه النخبة من تجاوز المشكلات الحضارية ومن دفع الأمة في مجالات الرقي والتصعيد .

وقد انتبه الفلاسفة والباحثون الى اهمية هذه الصفوة فتحدثوا عنها في كل الحضارات والامم حتى ان ارنولد توينبي ربط كل تقدم بوجود الفئة القائدة هذه .

النخبة بين الانفتاح والانغلاق

وتظل الأمة والجماعة بخير طالما أن هذه الطليعة متفتحة الافاق والعقول مدركة لحركة التطور وعارفة بطبيعة عصرها وباساليب الحياة المستجدة **(فرحم الله رجلا عرف زمانه واستقامت طريقته) . وعندما تبدأ هذه النخبة بالانغلاق على نفسها او عندما تصاب هذه الفئة او تفسد او يقع الشقاق بين افرادها فانها تكون قد استنفذت اغراضها عن القيادة الراشدة .**

فإن تمكنت الأمة او الجماعة من إبدال القيادة باخرى اكثر وعيا وحمية وتفهما حافظت على مدها الحضاري والا فان عدم التبديل هذا يكون قد أوصل الأمة أو الجماعة الى ما يعرف بالعقم القيادي وهي مرحلة خطيرة تنتهي بتدمير الامة وتفكك أجزائها ووقف العطاء الحضاري ان لم يوصل الى اندثار الحضارة ان كانت قد فقدت سائر ضوابطها[١] .

والاسلام اعتنى بالقيادة عناية فائقة واشعر القيادة انها اكثر الناس عبئا ،فعليها ان تكون اكثر تفهما ووعيا وقد عبر عن هذا المفهوم ابو بكر

(١) راجع الفصل الاخير من هذا الكتاب صفحة ٦٥ وما بعدها . . .

الصديق رضي الله عنه في خطاب الخلافة : (وليت عليكم ولست بخيركم اطيعوني ما اطعت الله فيكم) حتى ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد ارتفع الى قمم المسؤولية حين قال : (إني خشيت ان أسأل عن دابة عثرت في اقصى العراق لِمَ لم اعبد لها الطريق) .

***

● اللغة الاصيلة ضابط حضارة :

ومن الضوابط الاساسية للحضارة اللغة ، وبقدر ما تكون اللغة اصيلة متينة بذاتها بقدر ما تتميز بها الحضارة .

الغزو الثقافي عن طريق اللغة

واللغة وان كانت اداة التخاطب والتعارف في الامة[1] الا انها ايضاً الاداة الاولى والاهم في الثقافة الفكرية فعندما تنتقل لغة ما الى امة اخرى ينتقل معها التأثر بثقافة تلك اللغة وعاداتها ومعطياتها ومفاهيمها عن الحياة وهو ما يسمى بالغزو الثقافي عن طريق اللغة وتصبح اللغة اكثر من اداة وتتحول الى ضابط حضاري كامل عندما تكون للحضارة معطيات فكرية متكاملة متصلة بالشرارة الالٓهية الخلاّقة (على حد تعبير توينبي) او عندما تكون هي اداة المعجزة الخالدة كما هو شأن القرآن في الحضارة الاسلامية .

من هنا كانت الصلة بين الحضارة الاسلامية واللغة العربية صلة متميزة اصيلة فالعربية لسان الاسلام . . . والقالب الذي تجسدت فيه معجزته القرآنية . . . الامر الذي غدت معه الدعوة الى تعلم العربية واتقانها فرضاً من الفروض الاسلامية[2] .

---

(١) يعرِّف ول ديورانت اللغة انها : (اتصال عن طريق الرموز) (قصة الحضارة) ويقول :(هل تعرف اختراعاً يساوي في قوته ومجده هذا الاختراع اختراع الاسم الكلي) .

(٢) قامت مؤخرا « منظمة ناشئة عرفت باسم الاتحاد الدولي للمدارس الاسلامية ومركزها الرئيسي الرياض وغايتها الاساسية دعم وانشاء المدارس التي تعلم العربية لغير العرب من المسلمين . وتمنحهم بالنتيجة شهادات مقبولة يمكن ان يتابعوا بها التحصيل العالي وهذا الاتحاد واجب دعمه وتعميمه . . . فهو احد الوسائل لتفهيم الاسلام للمسلمين غير العرب بلغة القرآن والحضارة الاسلامية المتميزة .

وفي مقابل هذه المنظمة نجد في لبنان مؤسسة رسمية هي المركز التربوي للانماء والبحوث التابع لوزارة التربية ويقوم هذا المركز بالتنفيذ التدريجي لمشروع خطير يعرف بمشروع اللغة الاساسية (وهو مشروع من =

وقد أصرّ المسلمون الاوائل على ان يكون تفهيم الاسلام للأمم التي دخولها باللغة العربية فدخل الدين الى القلوب والعربية الى الالسنة بآن معا » .

ابن تيمية واللغة العربية

يقول ابن تيمية:(ولهذا كان المسلمون المتقدمون لما سكنوا ارض الشام ومصر ولغة اهلها رومية وارض العراق وخراسان ولغة اهلهما فارسية واهل المغرب ولغة اهلها بربرية عودوا اهل هذه البلاد العربية حتى غلبت على اهل هذه الامصار : مسلمهم وكافرهم . . . وهكذا كانت خراسان قديما) اي انها استقامت على اللسان العربي .

وقد خاطب عمر بن الخطاب قواد فتح الامصار بقوله : « اما بعد . . . فتفقهوا في السنة وتفقهوا في العربية . . . واعربوا القرآن فانه عربي » . . .

ويروى عنه رضي الله عنه انه قال : « تعلموا العربية فإنها من دينكم وتعلموا الفرائض فإنها من دينكم » .

وعلى هذا فقد قرر ابن تيمية « . . . ان نفس اللغة العربية من الدين ومعرفتها فرض واجب فان فهم الكتاب والسنة فرض ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية وما لا يتم الواجب الا به فهو واجب » . فيكاد الاسلام لا يرى في بهائه وروعته وعطائه الا في الثوب الذي البسه الله اياه . . . . في لغته الجزلى الفريدة ذات الايقاع الموسيقي الفريد ﴿ انا انزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾[1] .

اعداد أحد المستشرقين في الجامعة اليسوعية) وتعني اللغة الاساسية فرز الالفاظ المتواترة في كل بيئة لبنانية واجراء دراسة حولها لتعليم التلاميذ الالفاظ بالعامية ذلك الفرز الذي يؤدي بالنتيجة الى ضياع اللغة وانفكاك لبنان عن حضارة الاسلام ، وهذا التحدي الخطر الذي نواجهه هو جزء من دعوات خطرة تهدف الى كتابة الحرف العربي باللاتينية او تكريس العامية والاعتراف بها . . . ولا يذكرنا هذا الا بالمحاولات الفاشلة لتتريك العربية . . . وهي محاولات تهدف جميعها الى القضاء على العربية لغة القرآن والاسلام .

(١) ذكر المستشرق جيت ان اللغة العربية هي اللغة الوحيدة التي تملك نغماً رائعاً مع ايجاز بليغ وضرب مثلاً على ذلك قوله تعالى (انا نحن نحي ونميت والينا المصير) فهذه الآية التي اختصرت فلسفة الحياة والمات والجزاء والحساب وحددت مصدر الكون والانسان والاحياء مكونة من ست كلمات بينها خمس تضم كل واحدة منها حرف « نون » فامتلكت بذلك ايقاعاً جزلاً فريداً وما ذلك للغة من لغات العالم . . . فتأمل !!! .

كما قرر ابن تيمية ايضاً على هجر العربية وعدم تعلمها الكراهية الدينية . . .[1] . ويأتي موقف ابن تيمية هذا ـ الذي يكشف ابعاداً هامة في فهم الحضارة الاسلامية واثر هذا الضابط في مسارها الصاعد ـ بعد ادراكه لاثار اللغة على الشعوب والامم فيقول : (واعلم ان اعتياد اللغة يؤثر في العقل والخلق والدين تأثراً قوياً بيناً ويؤثر ايضاً في مشابهته صور هذه الأمة من الصحابة والتابعين . . . وذلك لأن دور اللغات من اعظم شعائر الامم التي بها يتميزون . . . « وشعار الاسلام واهله » « اللسان العربي ») .

المسلمون غير العرب اتقنوا العربية

وقد فهم المسلمون غير العرب هذا الفهم الدقيق لاهمية العربية وغاية فرضها على السنتهم باعتبار ان الاسلام جعل من الانتساب انتساباً حكمياً الى لغاته . . . فأقبلوا على العربية وقبلوها دون اي شعور بالنقص ودون اي تعقيد وأحلوها الصدارة في السنتهم ومؤسساتهم حتى كادت العربية تقضي على اللغات المحكية وكادت تكون اللغة العالمية الوحيدة وبينما خضعت بعض البلدان للعربية خضوعاً كاملاً ـ كما رأينا ذلك مع ابن تيمية فيما يعرف اليوم بالعالم العربي ـ وجدنا ان بعض البلدان الاخرى تمردت بعد حين على العربية وعادت تحتضن لغتها الأم من جديد لاعتبارات واحداث يخرج تفصيلها عن بحثنا هذا . ويمكن ان نذكر هنا ، منها ، الشعوبية والعصبيات القومية والحزبية والمذهبية كما يمكننا ان نقول ان ممن تولى كِبْرَ هذه الاعتبارات من كان حسن النية ضمن ردات فعل عفوية ، ومنهم من كان ضمن معطيات وخلفيات حاقدة مدمرة . . . غير ان النتيجة المحزنة للامرين معاً كانت انفصال العديد من الامم عن العربية ، لغة الحضارة الاسلامية المتميزة دون الانفصال عن الاسلام مع ما يمكن ان يشوب فهم الاسلام من معضلات وانحرافات نتيجة للانفصال اللغوي . فإيران مثلاً وما حولها من البلدان ، بعد ان كانت من اهم مراكز العربية وبعد ان كتب ادباؤها

---

(١) بقوله عن اهل خراسان ـ وكانت لغتهم فارسية ـ (انهم تساهلوا في امر اللغة وإعتادوا الخطاب بالفارسية حتى غلبت عليهم وصارت العربية مهجورة عند كثير منهم . ولا ريب ان هذا مكروه دِيناً) يراجع اقتضاء الصراط المستقيم ص ٢٠٦

وعلماؤها ومفكروها اهم واخطر نتاج الفكر الاسلامي في مختلف الحقول الفقهية والتاريخية واللغوية والحديثية والادبية باللغة العربية عادت تلوذ من جديد بلغتها الفارسية ، التي كانت تعيش سكرات النزع الاخير ، فنهض بعض حكامها وشجعوا التأليف والكتابة بالفارسية . . . . وكان منهم السلطان محمود الغزنوي الذي دعا الفردوسي ـ وكان ممن لا يزالون يحسنون الفارسية ـ الى كتابة التاريخ الفارسي ضمن قالب ادبي يحفظ اللغة الفارسية فكتب الفردوسي(الشاهنامة)[١] « بالفارسية على نظام الشعر العربي واوزانه وقوافيه وبالحروف العربية . . . وتعتبر « الشاهنامه » اروع واصفى الادب الفارسي . . . ومن ذلك الحين أخذ الفرس يحبون ادبهم ويتقنون لغتهم فاستسلموا لها واستقامت لهم . . . بعد أن استقامت هي بما يقارب الستين بالمائة من المفردات على العربية ومن هنا فان تمرد فارس على العربية لا يشبه بحال تمردها على المسيحية ولغتها[*]. . « فالمسيحية التي مارست دعوتها في بلاد الشرق باللغة السريانية وهي من فروع الآرامية فشلت في اكتساب فارس كما فشلت سريانيتها التي كتبت بها الاناجيل في احتواء الفارسية او التأثير فيها . . . »[٢] .

وقد حاول الرومان من قبل فرض لغتهم اللاتينية دون جدوى حتى اذا ما اصبحت لغة للمسيحية كدين ورسالة انتشرت اللغة اللاتينية لكنها ظلت لغة رسمية ثم اختلطت باللغات المحلية الاوروبية فظهرت اللغات المعروفة كاشتقاقات عن اللغة اللاتينية الأم[٣] . ومعنى هذا ان العربية وحدها قدرت ان تكون لغة شعوب لم تكن في الاصل تتكلمها وبقيت العربية لغة الحضارة الاسلامية وستبقى اصيلة في حفظ الحضارة وفي دفع ابنائها لاخراج الحضارة

---

* عدد ابيات الشاهنامه ستون الفاً وكلماتها اربعمائة الف كلمة فيها اخبار ملوك الفرس واحوالهم من بدء التاريخ الى الفتح العربي .

(١) ذكرت الوكالات ان الثورة الايرانية دعت الى اعادة الاعتبار للغة العربية بجعلها لغة رسمية في البلاد وادخالها في مناهج التعليم وهي بادرة ايجابية يقتضي دعمها وتعميمها وتشجيعها .

(٢) ثورة ايران في جذورها الاسلامية الشعبية ملف النهار تاريخ ٢/ ٤/ ١٩٧٩ .

(٣) حصر سكيت Skeat (كل الالفاظ الاوروبية تقريباً في نحو اربعمائة كلمة اصلية) عن قصة الحضارة

الاسلامية من نقطة توقفها الى مرحلة العطاء الكامل[1] .

***

ان الحضارة الاسلامية وهي تتمتع بضوابط اصيلة ذاتية من عقيدة ونظم ودولة وقيادة ولغة ، تميزها عن سائر حضارات الدنيا وتجعلها بحق الحضارة الأمثل والاقرب الى طبيعة الانسان وذاتيته لتطرح امامنا ـ وهي اليوم في مرحلة التوقف عن العطاء ـ مجموعة تحديات اساسية كشروط مسبقة لامكانية استئناف عطائها الاصيل من جديد .

***

(١) في الندوة العالمية للشباب الاسلامي المنعقدة في الرياض آذار ـ مارس ١٩٧٩ واثناء مناقشتي لضوابط الحضارة الإسلامية ومن بينها اللغة العربية تقدم مني الامين العام المساعد لصندوق التضامن الإسلامي السيد ـ كاري درامي ـ وهو غير عربي ـ من افريقيا ـ وراح يناقشني بلغة عربية فصحى عن شكه في ان تكون اللغة العربية ضابطاً حضارياً للحضارة الاسلامية متماثلاً : لو ان امة امتلكت كافة ضوابط الحضارة باستثناء اللغة العربية فهل تكون الحضارة الاسلامية في حالة عطاء وتصاعد وابداع !! . فأجبته لا ريب ان الحضارة الاسلامية تكون في مرحلة عطاء لكنه عطاء غير متكمل ، تتكامل عندماتتقن تلك الامة لغة القرآن. فاللغة العربية احد اهم الضوابط الحضارية كما ان تعلم الشعوب غير العرب العربية فرص اسلامي وليس في الامر صعوبة فقد تكلمت تلك الشعوب العربية من قبل وبامكانها ان تفعل ذلك اليوم وبسهولة اكثر لتوفر وسائل التعليم التي لم تكن متوفرة من قبل . كما ان بعض الشعوب ومنها شعوب اسلامية تتكلم اليوم الانكليزية وغيرها مع ان لغاتها المحلية غير ذلك وها انت ايها الاخ الكريم تتكلم العربية دون اي تعنت او احراج !!!! غير ان المتآمرين واعداء الاسلام يحاولون طمس معالم العربية بشتى الوسائل ومنع الشعوب من تعلمها فضلاً عن مؤامرتهم على اللغة العربية في العالم العربي نفسه اذ يدعو دعاة الى كتابتها بالعامية المحكية ودعاة آخرون الى كتابتها بالاحرف اللاتينية . . . وكل تلك المؤامرات تصب في مصب واحد هو محاولة طمس لغة القرآن لغة الحضارة الاسلامية لما في اللغة من آثار هامة على نفسية الشعوب . . .

الفصل الثالث

ظاهرة التوقف في الحضارة الإسلامية

والظواهر الحضارية المتمادية فيها

الضوابط الحضارية ـ المحكية آنفا ـ تضمن المسار الحضاري في خط مستقيم وتحفظ للحضارة حيويتها وعطاءها . فاذا كانت الضوابط هامة في كل حضارة فانها في الحضارة الاسلامية اساس محتوم . فهي ، كالروح من الجسد ، بل هي المناخ الوحيد الذي تتفاعل فيه المفاهيم وتظهر الحضارة ، فاذا ما تعطلت هذه الضوابط او بعضها لسبب او لآخر . تترجرج الحضارة الاسلامية ثم يتوقف عطاؤها الكامل ، وتمسى في حالة حضارية متميزة أعني **حالة التوقف عن العطاء** .

بين التوقف والاندثار

والتوقف عن العطاء يختلف عن الاندثار والتشتت او الافول والغروب **فالتوقف عملية ذاتية** تفرضها الحضارة على نفسها بفعل تعطل بعض او جميع ضوابطها . فهي ـ اي الحضارة ـ موجودة في مفاهيمها ـ وربما في ممارسة جزئية لتلك المفاهيم ـ غير انهامحجمةعن العطاء والاشراق والابداع . ذلك ان الحضارة الاسلامية لا تقبل الترقيع وترفض التجزئة والاشراك وانصاف الحلول . وان الرفض هذا الذي هو ابرز معالمها يدل بعمق على اصالتها وقدرتها على المجابهة والتحدي . **اما الاندثار والافول فهو زوال الحضارة من الوجود** وتحولها الى ركام من تراث ثقافي يتمثل عادة بفن المعمار وبكتابات علمية وفلسفية . اي ان الحضارة قد اصيبت بفعل التلاشي الكامل ، وهو فعل يقضي على الانسان المؤمن بمعطيات تلك الحضارة ويقضي على ممارسة تلك المفاهيم والمعطيات ضمن واقع ملموس . فعندما يتلاشى التفاعل وتسقط اسبابه ومبرراته تكون الحضارة في حالة الضياع لا في حالة التوقف ذلك ان انسانها (العنصر الاساسي) مع مجتمعه قد انفصلا عن مفاهيمها وتمردا عليها فكان لا بد ان تندثر تلك المفاهيم مع ركام التاريخ وحدثان الازمان والاعصر فتمسي غير قابلة للتفاعل والحياة .

الحضارة الاسلامية ترفض التجزئة

ان الحضارة الاسلامية ، وهي في مرحلة التوقف الذاتي عن العطاء تمتلك كثيرا من مقومات الحياة تلك التي لو كان مثلها عند حضارات اخرى لاعتبرت نفسها في مرحلة العطاء والقمة . فغالبية المسلمين لا يزالون يؤمنون بالمفاهيم الاسلامية العامة ، مع ما شاب هذا الايمان من اختلاط وانحراف ، وكثير منهم يحاولون ممارسة الاسلام في مختلف شئون حياتهم ، كما ان بعضا من مؤسسات الاسلام العامة لا تزال تقوم في بلاد المسلمين (تطبيق الشريعة الاسلامية في بعض البلدان ، في بعض جوانب الحياة ، كالاحوال الشخصية والوقفية والمعاهد العلمية والحركات الاسلامية والمساجد والحج . . .) .

ومع هذا فان الحضارة الاسلامية الرافضة للتجزئة ، ترفض ان تعطي ، أو أنْ تَخْرُجَ من مرحلة التوقف عن العطاء الا بعد توفر الضوابط كلها . فتغدو عندئذ حرة في تنشئة المجتمعات الاسلامية ، وفي رسم اطر الحياة العامة فيها ، وفي حمل كافة المؤسسات على الالتزام ـ بطواعية ـ بمفاهيمها وتصوراتها .

التوقف يحمي الحضارة

وتنظر الحضارة الاسلامية الى التوقف عن العطاء كأمرٍ بالغ الاهمية . **فالتوقف يحمي الحضارة من اي زيف قد يلحقها** ، كما انه يجعل المسلمين في حالة ترقب وانتظار لعطائها ، مما يدفعهم دفعا الى السعي الجاد لاستئناف المسار الحضاري مع ما يرافق ذلك الدفع او مع ما يكتنفه من شعور عميق بالذنب لادراكهم ان إنغلاق حضارتهم على نفسها ورفضها العطاء بغياب ضوابطها او بعض تلك الضوابط يتحملون هم مسؤوليته . فيُحرمون من العطاء من جهة ويكونون هم موضع العقوبة ومحلها من جهة ثانية .

فالاسلام ينظر الى التوقف عن العطاء على انه **عقوبة استحقتها الامة لتعطل الضوابط** او بعض تلك الضوابط . فالانحراف عن المفاهيم الاسلامية وتعطيل الممارسة الصحيحة ، يُجبهان بعقوبة التوقف عن العطاء ، فلا يعقل ان يكون مع الانحراف عطاء كما لا يجوز ان يبقى الانحراف دون عقاب عادل .

التوقف بقدر

على ان الاسلام وهو يدرك الاسباب المختلفة لهذا الانحراف ، وبعضها خارج عن ارادة الأمة ـ وهو ما سنبينه فيما بعد ـ لا يقسو في العقوبة ، ولا يشتد في

الامتناع عن العطاء ، فحضارته تتوقف عن العطاء بالقدر الذي يجعلها غير مسؤولة عما يحدث ، وبالقدر الذي تحافظ به على نضارتها وخيرها ، وبالقدر الذي تتمكن فيه من ايجاد ردة الفعل عند جماهير الأمة للتعرف على اسباب التوقف ولمعالجة تلك الاسباب ، هذا « القدر » **ترسمه الحضارة الاسلامية بكثير من الدقة والتنبه والحذر ، فهي من جهة ترفض العطاء الكامل ، وهي من جهة اخرى ترفض ان يحولها التوقف الى التفكك والاندثار .**

وبهذا التوازن الدقيق بين العطاء والاندثار تنفرد الحضارة الاسلامية من بين حضارات الارض كلها بخاصة مدهشة كشفت بها عن قدرتها وتميزها واصالتها . . .

الافراز الحضاري وعملية التوازن

ان عملية التوازن هذه هي اخطر ما في التوقف من قضايا شائكة وفي سبيل ضمان نجاحه واستمراره بشكل مرن وفاعل تقوم الحضارة الاسلامية وباستمرار بافرازات جماهيرية متصلة تكون هي بها صاحبة التفاعل والتوازن المطلوب .

والافرازات الحضارية تلك ليست الا احدى اثنتين اما مؤسسات حضارية شعبية كانت في مرحلة العطاء الكامل ، وبقيت في مرحلة التوقف ، كالمحاكم الشرعية والاوقاف والمساجد والمؤسسات التعليمية والفقهية والحج والزكاة ومكارم الاخلاق وحركات العلماء والمفكرين ، او مؤسسات يمكن ايجادها ضمن إطار المفاهيم الاسلامية ، ومنطق تطور العصر ، كالحركات الجماعية المنظمة (الاحزاب) او المؤتمرات العالمية والاعلام الموجه .

ان هذه المؤسسات وهي تجسد اسلوب عطاء فاعل ، تحافظ به الحضارة الاسلامية على وجودها ، تغدو عناصر دافعة الى اخراج الحضارة من التوقف الى العطاء . فالمسجد مثلا بما أهل له من تجمع شعبي يقوده إمام في صلوات وفي خطبة اسبوعية على الاقل او في توجيهات اخرى هو مؤسسة حضارية فاعلة لا يمكن تجاهلها .

والحج المؤتمر الشعبي الكبير ، الذي يتحرك في لحظات واحدة في ممارسات

تعبدية واضحة يجمع الناس في حيز واحد وفي مظاهر واحدة لهو ظاهرة حضارية رفيعة تغذي الحضارة الاسلامية وترفدها بافرازات شعبية اخرى وتحفظها من اي انهيار او اندثار . **والمؤسسات العلمية تدرس الاسلام** في مختلف جوانبه وتعمل على تخريج مجموعات يبرز منها عناصر قيادية راشدة تتمكن من جذب انتباه واهتمام جماعات مسلمة في مختلف اقطار المسلمين من اجل استئناف حياة اسلامية .

والعلماء والمفكرون وما تدفعه المطابع من آلاف الكتب الاسلامية سواء منها كتب التراث أو كتب المجددين فضلا عن المجلات والصحف الاسلامية ظواهر حضارية فذة .

والحركات الاسلامية المنظمة الهادفة الى استئناف الحياة الاسلامية وتصحيح مسار الحياة الاسلامية الحالية ، وهي حركات شعبية جامعة ، واعية لمسؤولياتها الحضارية ، تعتبر بحق من اهم الظواهر الحضارية في عالم اليوم او في مرحلة التوقف الحضاري .

فالحركة الوهابية التي قادها محمد بن عبد الوهاب في أواسط القرن الثامن عشر كانت - كما يقول هاملتون جب - (صيحة انذار مدوية ضد الانحطاط في العالم الاسلامي) .

والاخوان المسلمون والجماعات الاسلامية في باكستان وايران وتركيا ثم اتحادات الطلبة المسلمين في اوروبا وامريكا ثم المؤتمرات الاسلامية الشعبية والرسمية ، ظواهر حضارية فذة ، وهي بمثابة سلاسل متصلة الحلقات في اعمال وتطلعات من اجل استئناف الحياة الاسلامية من جديد .

ومحاولات تطبيق الشريعة الاسلامية ، فضلا عن تطبيقها الجزئي في بعض البلدان العربية والاسلامية وفضلاً عن الاصرار على جعل الشريعة مصدرا للتشريع والتقنين وعلى جعل دين الدولة الاسلام ، ظواهر حضارية رفيعة .

هذه الظواهر وسواها مما تفرزه الحضارة الاسلامية وهي في حالة التوقف

عن العطاء تشكل جدارا واقيا يحفظها من بعض العـاديات ، ويضفـي عليهـا ـ وهي في حالة التوقف ـ طابع الحركة الذاتية الابداعية المتجددة . تلك الحركة التي تغدو حركة مجابهـة عنيدة ضد كافـة محـاور الهجـوم المتمادي على الحضـارة الاسلامية وضوابطها الحضارية مما ألجأها الى حالة التوقف القسرية .

الهجوم الماكر

ان الهجوم الماكر الذي شنته حضارات الدنيا ، وبخاصة الحضارة الغـربية كان ولا يزال ضاريا شرسا متقدما في كثـير من المجـالات ، متمتعـا بكثـير من الضمانات . وقد بدأ هذا الهجوم منذ فجر التاريخ الاسلامي فكانت محـاولات التأثير الاغريقي اليوناني والروماني والفارسي والهندي والمسيحـي واليهـودي في الاتجاهات الفكرية والعقيدية الاسلامية ، ثم كانت الهجمات الصليبية الضارية على بلاد المسلمين ، اعقبتها هجمات التتار والمغول .

ولئن فتحت القسطنطينية بعد ذلك الا ان الانـدلس قد تفلتـت من ايدي المسلمين واندثرت الحضارة الاسلامية في هاتيك البلاد . ثم كانت الحرب العالمية الاولى وما نتج عنها من استعمار كثير من المناطق الاسلامية وتحول تركيا الدولة عن الاسلام والقضاء على القوانين الاسلامية فيها وعلى الاحرف العربية في لغتها وما رافق ذلك من بعث النعرات القومية في بلاد المسلمين ومن اصدار مجموعات القوانين المدنية والجزائية والتجارية والمالية في كافة الـدول العـربية والاسـلامية منبثقة في معظمها من تشريعات الدول الغربية ، ثم سارت المناطق الاسلامية في اتجاهات تحررية لطرد الاستعمار ، فاستقل كثير منها بينما رزح بعضها الاخر تحت الحكم السوفياتي او الشرقي في حين ان الدول المستقلة اضحت فريسة لاتجاهات انبعثت اساسا من مفاهيم الحضارة الغربية او الشرقية . وفي غمرة الاحداث تلك ضاعت فلسطين في متاهات الصهيونية العالمية والتآمر الدولي وعانت الأمة ويلات هذا الضياع الخطر . . .

وبالاضافة الى الهجمات العسكرية الشرسـة التي استغرقـت قرونـا طوالا جاءت الهجمة « الحضـارية » متآمرة على المفـاهيم والتصـورات الاسـلامية في الصميم . ونعدد هنا اهم محاور الهجوم الماكر هذا فنذكر منها :

١) محور التبشير والاستشراق .
٢) محور الجمعيات والاحزاب .

٣) محور الاتجاهات الفكرية الحديثة .

٤) محور محاربة الاتجاه الاسلامي والتشكيك به[١] .

٥) محور الدعوة الى « التغريب » الحضاري الكامل حياة ولغة .

هل قاربت الحضارة الاسلامية مرحلة العطاء ؟

ان مكر وضراوة هذا الهجوم ليزيلان معالم حضارات شتى ويجعلانها خبرا يروى وذكريات يتفنن بالتندر بها غير ان الحضارة الاسلامية بما افرزته من مؤسسات واقية وبما تميزت به من قدرة ذاتية هائلة كامنة في كتابها الرباني الخالد « القرآن » . ان هذه الحضارة تمكنت ـ وهي في حالة الالتفاف على نفسها والتوقف عن العطاء ـ من تجاوز العقبات الحادة تمهيدا لمرحلة الخروج الى مرحلة العطاء الكامل .

ان الوثبات التي نراها ، متتالية دفاقة في العالم الاسلامي ، ومن وراء الحدود في القارات الاخرى لتؤكد بصورة جلية ان مرحلة التوقف قد شارفت على النهاية وان الحضارة الاسلامية تستعد الآن لاستئناف ضياءها الوهاج .

ولا يعني هذا ان مرحلة الخروج هذه سهلة يسيرة . . . فلا ريب ان المشتغلين في امور الحضارات والمتآمرين في كل العالم يعيدون تنظيم صفوفهم محاولين الحيلولة دون استلام الحضارة الاسلامية زمام القياد العالمي ـ وهذا ما سنبحثه فيما بعد ـ ونكتفي هنا بالاشارة السريعة الى نداء اطلقته مجلة جويش كرونيكل اللندنية الى العالم الغربي والاتحاد السوفياتي بآن معا من ان يروا جيدا الاثار الرهيبة و(المضاعفات الهائلة التي يمكنها ان تترتب على نزعة الجهاد لدى المسلمين) في الربع الأخير من القرن العشرين وأوضحت (أن واضعي الاستراتيجية السياسية الغربية سيتبينون قصر نظر فاضحا إذا هم تجاهلوا الدعوات المتزايدة التي توجهها مؤسسات العالم الاسلامي وجامعاته الى اعادة النظر في فوائد الحياة العصرية والعودة الى التعاليم الاساسية للاسلام واكدت ان (لا العالم الغربي ولا الاتحاد السوفياتي يستطيعان رؤية يقظة العالم الاسلامي ونهضته في راحة بال . . .) .

---

(١) راجع تفاصيل ذلك في كتابنا الطريق الى حكم اسلامي فصل الهجوم الماكر .

الفصل الرابع

تحدّيات الحضارة الإسلاميّة

الحضارة ـ كما رأينا ـ تفاعلٌ بين الانسان ومجتمعه من جهة وبين البيئة والاكوان المحيطة بها من جهة اخرى . والحضارة الاسلامية ـ كما رأينا ايضا ـ ممارسة المفاهيم الاسلامية القاضية باقامة الخلافة عن الله في الارض . وهذا المفهوم العريض للحضارة ، وللحضارة الاسلامية بصورة خاصة ، يكشف قدرة حضارة الاسلام على المواجهة ضمن نظرة وتصور شموليين لكافة أوجه الحياة ، سواء كانت الحضارة في حالة عطاء ام في حالة توقف ، في حالة مد ام في حالة انحسار . . . وسواء كانت هذه الأوجه متعلقة بتجمعها الحضاري الخاص وباستمرار تفاعله ام في علاقتها هي كحضارة بالحضارات الاخرى .

والحضارة الاسلامية ، ازاء تلك المواجهات تنطلق بعدة كاملة وبتصورات ثابتة تتحول بفعل الصراع الى تحديات تأخذ اشكالا صلبة حينا ومرنة حينا آخر .

وبحيوية تلك التحديات تمكنت الحضارة الاسلامية من الثبات ازاء الصراع وبالتالي من استيعابه وتجاوزه . وكشأن سائر خصائص الحضارة الاسلامية فإن تحدياتها هذه منبثقة عن ذاتيتها الاصيلة وهادفة الى تحقيق وجودها وتأصيله . . .

التحديات السبع :

وفي مسيرة الحضارة الاسلامية نستقرأ سبع تحديات اساسية :

١ ـ شرعة حقوق كاملة

١ ـ شرعة حقوق كاملة للانسان وتجمعاته ودوله وعلاقاته بالكائنات حوله من حيوان ونبات وجماد واكوان .

وهذه الشرعة التي هي الأولى من نوعها في حياة البشرية ، الأولى في تكاملها

وشمولها والاولى في عدالتها ووضوحها والاولى في امكانية اعتمادها في كل زمان ومكان ... هذه الشرعة تتمثل في التصورات الاساسية للوجود كله .

وتتضمن هذه الشرعة كموضوع لها الانسان من حيث وجوده غاية وتنظيماً ومن حيث علاقاته بربه وبنفسه وبأمثاله ومن حيث حرياته وأنظمته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدولية . كما تتضمن هذه الشرعة حقوقاً للحيوان وتحديداً لقيمته ومدى علاقة الانسان به . وكما الحيوان كذلك النبات والجماد . فالنبات له حقوق ينبغي الا تهدر ، وعلى الانسان أن يرعاها أثناء تعامله معه والكون بفضائه وبأرضه وما فيها من خيرات ومعادن له أيضاً حقوق لا يمكن تجاهلها .

وعندما يقرر الاسلام شرعته الحضارية الشاملة للانسان والحيوان والنبات والاكوان وينظم طبيعة العلاقات وطرق التفاعل بين هذه المخلوقات والحدود التي ينبغي ان تقف عندها كي لا تنقلب الى عدوان فإن الاسلام ـ بما امتلكه من شرعة واضحة ـ قد واجه العناصر الحضارية بكثير من التقدم والتفوق والجدية مرسيا بذلك قواعد التفاعل الحضاري على اسس متينة ومدروسة .

ان استقراء الحضارات الاخرى الماضية المندثرة او المتجددة عبر حضارة الغرب المسيحية وما تفرع عنها من حضارة شرقية شيوعية كما ان استطلاع شرعة حقوق الانسان ودساتير جمعيات الرفق بالحيوان والجمعيات المهتمة بالنبات او تلك المتعلقة بالبيئة والفضاء ان هذين الاستقراءين يؤكدان حقيقة واضحة هي ان الحضارة الاسلامية كانت سابقة في كل ميدان ومبرزة عن سواها حتى انها لا تزال متفوقة على غيرها بكثير من المعطيات والخصائص .

٢ ـ الحلال والحرام أو الخاتم الحضاري

وانطلاقا من شرعة الحقوق هذه تحرص الحضارة الاسلامية على صبغ اصعدة الحياة في مجالاتها المختلفة بطابعها المتميز حتى لكأنك تراها من خلال الحياة نفسها ومن صور الممارسات العديدة فيها ولعل فلسفة الحلال والحرام هي الخاتم الحضاري الذي تطبع به الحضارة الاسلامية كل مقولاتها وممارساتها في شرعتها العالمية لحقوق الانسان وعلاقات هذا الانسان وتفاعلاته مع البيئة والاكوان والنبات والحيوان . حتى غدت تلك الفلسفة ميزانا حساسا يملكه كل فرد صغيرا

او كبيرا جنديا او قائدا مؤتما او اماما بعفوية وصدق كبيرين .

ان فلسفة الحلال والحرام هي من ابرز معالم الحضارة الاسلامية بل هي سر من اسرارها فهي فضلا عن انها ميزان يزن به المرء اعماله ويقومها على اساسه فهي اداة واقية هامة يقيمها الاسلام في ذاكرة كل فرد في **سبيل منحه قدرات التدقيق والمراقبة على اعمال وممارسات وتفاعلات المجتمع برمته** .

وبواسطة هذا التصور العملي تمتلك الانظمة والقوانين والشرائع والحقوق **خاصيات المراقبة الذاتية** ويغدو الفرد حارسا لتلك الشرائع مطبقا لها بعفوية وقصد على **السواء** فهو يشعر ان القانون هذا انما هو قانونه الذاتي ومطلوب منه تطبيقه في السر والعلن وسيحاسب عليه في الآخرة لان الله سبحانه وتعالى مطلع عليه . . . فهو ان خالف فقد ارتكب معصية وان استترت مخالفته في الدنيا عن اعين الحكم والسلطة فستكشف في الآخرة حين تشهد عليه يداه ورجلاه وعيناه واذناه .

وهكذا تغدو القوانين والانظمة القائمة على معطيات الحلال والحرام اصدق في التطبيق ولو كان الانسان وحيدا بعيدا عن اية انظار .

والامثلة القليلة الاتية تعطينا بعض تلك التصورات ومدى تفاعلها وتأثيرها في مختلف جوانب الحياة . فعندما يؤكد النبي ﷺ **ان للجار حقوقا** ومنها ان لا يستطيل عليه بالبنيان فيحجب عنه النور والهواء انما بذلك يرسم قواعد اساسية اجتماعية وعمرانية في آن معا ، وكلاهما مطبوعان بمعطيات الحلال والحرام . . .

فاذا جاء تنظيم الدولة ليرسم معالم العمران وتخطيط المدن والاحياء كان لزاما عليه ان يأتي ضمن التصور العمراني وايحاءات الفن الاسلامي **للهندسة المعمارية** حتى اذا غابت هذه الانظمة الرسمية الصادرة عن السلطة جاء الافراد يطبقون المعطيات بعفوية صادقة لانها تتعلق بقواعد اساسية وبتصور الحلال والحرام فلا يجوز لهم مخالفتها .

وفي المال تتشابه القضايا وتتداخل ومع هذا فان حقائق الحلال والحرام تبقى مستعلية . . . فالاسلوب الربوي مثلا المعروف قديما وحديثا اخذ اشكالاً

واساليب عدة غير ان الله سبحانه احل البيع وحرم الربا ضمن مفهوم الحلال والحرام . فلو ان الدولة لم تأت بتنظيم الاوضاع المالية لجاء الناس ينظمونها بعفوية كاملة ولاحلوا ما احل الله ولحرموا ما حرم الله . **وفي الازياء** نجد الاسلام يصبغها بتصوراته يعين فيها حدودا وشروطا ويربطها بمقتضيات الحلال والحرام وما يجاز ان يرى وما لا يجاز . وبذلك يغدو الزي مظهرا حضاريا مرتبطا بمقاييس يملكها كل فرد يعي اسبقياتها ويستوعب ضروراتها فان غابت الانظمة الرسمية قام الناس طواعية بالتقيد في اصول الزي والتشبث به . . .

وفي امور الحياة المختلفة في تربية وتعليم الاطفال والاجيال وفي آداب الحياة وفي العلاقات الاجتماعية المختلفة نجد فيها جميعا ظاهرة الحلال والحرام تأخذ سبيلها في حال تصادمها مع تصورات اخرى وسط الصعاب لتؤكد من خلال هذا التصادم وجوب الارتباط بالأصول العليا وتأصيله وتعميقه .

حتى الرفق بالحيوان الذي يكتسب بالاسلام معطيات الحلال والحرام فيهبط الاخلال به الى مستوى المعاصي حيث يعاقب عليها ـ في الآخرة ـ بالنار او يرتقي الالتزام به الى مستوى المبرّات حيث ينعم عليها بالجنة . . . ومثل المرأة التي دخلت النار في هرة حبستها لا هي اطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشائش الارض ومثل الرجل الذي دخل الجنة في كلب سقاه بكعب حذائه عندما وجده يتلوى قرب بئر . . . ان هذين المثلين يجعلان العلاقات الانسانية بالحيوان تكتسي طوابع اصيلة تعجز عنها حضارات الدنيا باسرها .

وعندما يحرم الاسلام في نظام حربه مثلا **قطع الاشجار واتلاف المزروعات** فانما يرسم بذلك قواعد اساسية في طبيعة العلاقات يدركها المرء وهو في خضم المعارك ويشعر فيها باعماقه مستلهما معاني الحلال والحرام . . .

٣ ـ مسؤولية التنفيذ وعملية التغيير والتطوير

ونتيجة لهذا التصور ـ التحدي ـ الذي يتمادى في الزمان والمكان مهما كانت الظروف والصعاب تُؤصّل الحضارة الاسلامية في حس الفرد والجماعة بآن معا مسؤولية كلا الفريقين في تنفيذ مفاهيمها (وهذا ما رأيناه عبر ممارسات الحلال

والحرام) وفي عمليتي التغيير والتطوير (الامر بالمعروف والنهي عن المنكر والعمل على نقض الفساد وازالة الظلم واقامة الحكم الاسلامي) .

فعندما يجعل الاسلام عمليتي التغيير والتطوير واقامة الحكم الاسلامي والجهاد فروضا كسائر الفروض الفردية المتعينة على كل مسلم ـ وان اختلفت درجات تلك الفروض في حالات وضمن مواصفات الا انها تبقى فروضا ـ يأثم المسلمون حال تركها وعدم القيام بها . . . عندما يقيم الاسلام تصوره هذا ضمن هذه المعطيات انما يقصد ابقاء الحياة المتجددة على حضارته وان أمست في حالة التوقف عن العطاء .

من هنا قلنا ان الحضارة الاسلامية وهي في حالة التوقف عن العطاء تكون في حالة عطاء آخر . فهي بما تملكه من مقومات ذاتية متصلة بجماهير الناس تضمن لنفسها قدرة الحفظ وعدم الاندثار او التحلل كما تضمن مقومات استئناف العطاء الاصيل من جديد بما تحققه هذه المقومات على الصعيد الجماعي في عمليتي التغيير والتطوير من قدرات تستعد بها الحضارة الاسلامية ـ وهي في حالة التوقف ـ للتغلب على كافة الحواجز والموانع تمهيدا للانطلاق الاوسع والفاعل (في بركات من السماء والارض) .

٤ ـ الغايات والوسائل

ومن الطروحات الاصيلة التي تتميز بها الحضارة الاسلامية باصالة كاملة وتجعلها احدى تحدياتها الحضارية الهامة قضية تحديد اطر الغايات والوسائل والتمييز بينهما في وضوح تصوري رائع محذرة من ان تنقلب الوسائل الى غايات . . . فيرتكس الانسان متهاويا عن مركزه الحضاري الرفيع وهو خلافة الله في الارض .

فاذا كانت غاية الوجود الانساني في الارض تحقيق الخلافة في كل ظواهر الانسان وله ان يستخدم من اجل ذلك كل مقدرات الارض المسخرة له فان هذا الانسان يكون متعسفا الى درجات خطيرة عندما يقلب الوسيلة ، وهي هنا ما سُخِّرَ له فيجعله غاية له كالصنم يدور حوله سواء كان هذا الصنم حجرا كما كان حال الاقدمين او آلة كما هو الحال في العصر الحديث . ذلك ان الوسيلة لا

يجوز لها ان تصبح غاية والا اختلطت الامور وتعطلت المقاييس . . .

وفي سبيل ابقاء هذا المفهوم مُؤكدا وواضحا عند ابناء الحضارة الاسلامية فيغدو عندهم كالبديهية او ما يجري مجراها . . . أصّل الاسلام مفهوم الغايات والوسائل وربطها بإعجاز فريد بالله سبحانه وتعالى ﴿ قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين﴾ .

فالنظافة مثلا وسيلة لا غاية يتنظف المرء ويتطهر من أجل الصلاة والصلاة لله رب العالمين . **والعملية الجنسية** وان كانت استجابة لحاجة جسدية في الانسان الا انها ـ مع ما تحققه من لذة وتفاعل ـ وسيلة ولا يجوز ان تنقلب الى غاية فوسيلة الجنس تهذبها غايته وبذلك تستقيم الحياة وتتجدد .

وسائلنا غاياتهم

اما في الحضارة الغربية فالنظافة غاية بذاتها وكذلك الجنس يمارسان بالطريقة او بالوسيلة التي يراها الفرد مفيدة له . وبذلك تخلفت النظافة عندهم درجات واصبح الجنس بهيمية . . . حتى امكننا القول بكثير من الجدية والتأكيد ، ان وسائل الحضارة الاسلامية هي غايات الحضارة الغربية . . . ولا غرو في ذلك اذ (ان غاية الاسلام قد جعلت لحضارته صورة مستقلة مخصوصة تختلف عن صور سائر الحضارات القديمة او الحديثة في الدنيا اختلافا اساسيا)[1] .

وعلى هذا (فان الصورة التي يعامل بها الاسلام الدنيا وما فيها حسب نظريته وعلى مقتضى من غايته هي مختلفة عن الطرق التي تسلكها سائر الحضارات . . . لتحقيق غاياتها فكم من تصورات عقلية . . . ورغبات نفسية . . . وطرق مقررة لقضاء الحياة ليس اتباعها بمشروع فحسب بل هي من لوازم الحضارة في نظر حضارات اخرى . ولكن يأبى الاسلام ان يحرِّمها وينهى منها المؤمنين برسالته) .

الفنون الجميلة !!

(فالفنون الجميلة ـ مثلا ـ روح الحضارة وقوامها في نظر كثير من الحضارات

---

(١) المودودي في كتابه الحضارة الاسلامية ص ٨٥ ـ ٨٧

القائمة في الدنيا فهي لذلك تعتبر البارعين في هذه الفنون من ابطالها القوميين البارزين . . . ولكن الاسلام يحرم بعض هذه الفنون ويقول بكراهية بعضها ويبيح بعضها الى حد ما . ان قانونه لا يبيح ترقية الذوق الجميل والاستمتاع بالجمال الصناعي الا الى حيث لا ينسى الانسان ربه ولا يتقاعس عن بذل الجهود لاداء واجبات منصب الخلافة) وطالما اننا ضربنا المثل بالفن الاسلامي فنقول استكمالاً للرؤية انه قد نشأ من مفهومي الحلال والحرام والغاية والوسيلة الانفي الذكر تصور اسلامي متميز للفن الاسلامي اذ ان هذا الفن واضح للعيان ـ كما يقول الاستاذ برنارد لويس ـ بشكل لا يصعب التعرف عليه من كل (انسان حتى ولو كانت ثقافته الفنية والهندسية محدودة فان باستطاعته ان ينظر الى مجموعة صور فوتوغرافية لابنية او حاجات ويميز الاسلامية منها : فالقناطر ومنائر الجوامع والهندسة العربية والنقوش والنظم التي تتحكم في الشعر والتي تتحكم في فن الطهي كل هذه رغم اختلاف حقولها تظهر وحدة اساسية من التقاليد والاخلاق والسلوك وهي وحدة اسلامية تكونت اساسا في الشرق الاوسط على نماذج متشابهة عربية وفارسية وتركية في الموسيقى والبناء والسجاجيد والقباب وترى هذه الوحدة في فروع الحضارة الاسلامية المتشعبة وتسمعها وتلمسها وتتذوقها وهذه الوحدة موجودة ايضا ولو انها غير سهلة التحديد والفهم للرجل العادي موضوعات مثل القوانين والحكم والمؤسسات وفي المواقف والافكار السياسية والاجتماعية)[1] .

وفي مفهوم اوضح قال روجه غارودي : (والمسجد هو المثل الرمزي الاعظم وهو نوع من صلاة من الحجارة وملتقى جميع فنون الاسلام . وقد اصاب القائلون ان جميع فنون الاسلام تقود الى المسجد ، والمسجد الى الصلاة)[2] .

٥ ـ حوار الحضارات والحقائق الثابتة

والحضارة الاسلامية بما تملكه من تصورات وقيم وتفاعل ووجود تقبل حوار الحضارات تحاورها بمقاييس ثابتة وتجادلها بالتي هي احسن توصلا الى اقرار الحقائق الثابتة .

---

(١) الغرب والشرق الاوسط لبرنارد لويس ص ٣١

(٢) حوار الحضارات ص ١٧١

اما ركائز الحوار فهي كما تقررها الحضارة الاسلامية ما يلي :

أ ـ **الحضارة العالمية هي تلك التي تتمكن من استيعاب الانسان منذ وجوده الاول** ، وحتى النهاية المنتظرة للوجود ضمن قواعد اساسية ثابتة اي ان الحضارة العالمية الانسانية هي الحضارة الواحدة للانسان عبر ادراكه المستمر والمتصاعد وبالتالي فلا يصح ان تكون الحضارة العالمية تعددية ضمن حضارات متميزة عن بعضها وقد تكون متضاربة .

وقد جاء مفهوم التعددية هذا تغطية لعجز اي حضارة عن قدرة استيعاب الانسان في الزمان والمكان ، وعن عجزها في تفسير الادراك الانساني وتصاعده . اما الحضارة الاسلامية التي لا تشعر باية عقدة تجاه هذه المشكلات بل تستوعبها بكثير من المرونة باعتبارها هي حضارة الانسان الاول الذي تفتح فيه الادراك لحظة ايداعه الروح وتعليمه الاسماء والهامه قدرة التمييز والضبط والاستقراء وهي بالتالي حضارة الانبياء والرسل للاقوام والبشر وحضارة المؤمنين بالاسلام كما جاء به محمدﷺ . . . . وهي على هذا حضارة عالمية انسانية لا تعرف حدودا ولا تقبل تمييزا وتفاضلا بين جنس وآخر . والتمييز الوحيد بين البشر المقبول يجري على اساس الايمان بالله والاستقامة على نهجه ﴿ قولوا آمنا بالله وما انزل الينا وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون . فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وان تولوا فانما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم صبغة الله ومن احسن من الله صبغة ونحن له عابدون﴾ (الآية ١٣٥ وما بعدها من سورة البقرة) .

الحضارة العالية واحدة

وازاء الوحدة العالمية هذه نجد الحضارات الاخرى تقيم تمايزها على اسس من الجنس والقوميات او الاقتصاد او اللاهوت . وقد رأينا كيف يتم التمييز في اللون عندما جعلوا الابيض هو الانسان مهدرين انسانية الاسود والاحمر وعندما جعلوا التفاضل في الجنس الابيض للآريين وسلالاتهم مؤكدين انه

*

الاعلى وانه هو وحده القادر على صنع الحضارة والارتقاء على جبلها ـ على حد تعبير سان سيمون ـ بينما تعجز الاجناس الاخرى ولو كانت بيضاء من الارتقاء الا الى ارتفاعات معينة .

المناهج المتوازنة للانسان

ب ـ وباعتبار الحضارة الاسلامية هي الحضارة العالمية تدخل الحضارة الاسلامية ما يعرف (بحوار الحضارات) بفكرها المتكامل تناقش به ظواهر الوجود بأسره لتثبت في النهاية ان تصوراتها عن الكون والانسان والحياة وتصوراتها في مناهجها الحياتية المختلفة هي وحدها المتوازنة التي تصلح للانسان في كل زمان ومكان وهي التي تضمن له السعادة والامن والعدل والكفاية والرفاه .

من هنا فان مفاهيم الحضارة الاسلامية ازاء المفاهيم الاخرى هي الحق وما عداها ـ في اسس المفاهيم وقواعده ـ باطل (ذلك بان الله هو الحق وان ما يدعون من دونه الباطل) .

استيعاب الحكمة أنّى وجدت

جـ ـ غير ان هذا المفهوم الحق لا يمنع من استيعاب الحكمة انى وجدت كما لا يمانع من الاقتباس والانفتاح على مجالات العلوم والمدنية . فالحضارة الاسلامية تقيم فاصلا بينها كمفاهيم ، وبين المدنية كوجه حضاري يترقى كلما تعمق التفاعل الإنساني مع البيئة والأكوان . . . فهي في الوقت الذي تصرّ على أحقية مناهجها ومفاهيمها وتصوراتها وتعارض إشراك سواها بها تجيز هضم كل العلم وتمثله واقعاً فاعلاً أو معلومات فالمدنية والعلم وجهان للحضارة وعلى حضارة المسلمين أن تستوعبهما أولاً للتفوق على كل مدنية أخرى . وعلى هذا فالمدنية ثمرات علوم نتجت عن حسن استخدام الكون المحيط بالإنسان لذلك لا بد من الانفتاح عليها وعدم التقوقع والاعتزال يؤخذ منها كل العناصر الإيجابية والمعطيات النافعة غير المتعارضة مع قيم الإسلام وحدوده وضوابطه أو بمعنى آخر المتفقة وقواعد الحلال والحرام .

الآخرون يمكن أن يصنعوا الحضارة

د ـ وايضا فان اعتبار الحضارة الاسلامية هي الحضارة العالمية الواحدة لا يسقط عن الانسان غير المسلم قدرة صنع الحضارة من هنا فالحضارة الاسلامية في

حوارها تعترف لغير المسلم بحضارته الا انها تعتبر تلك الحضارة غير ملائمة في كثير من جوانبها مع **حاجات الانسان وتطلعاته** .

الحضارة عند الامم القديمة

فقد (كانت صورة الحضارة في مفهوم الامبراطوريات الفارسية والفرعونية واليونانية والرومانية السابقة على الاسلام قاتمة مظلمة قائمة على الظلم والاستبداد وعبادة الفرد . وكانت العبودية هي الصيغة الغالبة للمجتمعات . . . تقوم عليها جميع مفاهيم الحياة . . . وقد حفلت الحضارات القديمة باساليب من الظلم والقسوة وحب التعذيب والاستمتاع بالآم الغير)[1] وكان هدف تلك الحضارات (غزو العالم والاستيلاء على كل خيرات الارض ولم يحجموا في سبيل ذلك عن اي عمل واستباحوا في سبيل ذلك كل خطة واستحلوا كل فكر)[2] .

حتى ان الرومان عندما اصدروا بعض اللوائح القانونية ربطوا تنفيذها بالسادة دون جمهرة الشعب من العبيد والارقاء الذين اقتصرت اللوائح القانونية بالنسبة لهم على العقوبات وكان من درجاتها الاعدام بطريقة الالقاء الى الوحوش وسط هياج السادة واستمرائهم لهذا المنظر الكريه او نزع اللسان وصب القصدير المغلي في افواه المجرمين .

ويقول ارنولد توينبي في تاريخ الحضارة الهلينية : «لعل من الاسباب الجوهرية التي أدت الى انهيار الحضارة الهلينية انهيارا سريعا هو حين اخذ الهلينيون يتأرجحون بين ضربين من ضروب عبادة الانسان » .

الحضارة الغربية اليوم

اما الحضارة الغربية التي تحكمت في مقاليد القيادة العالمية فيكفي انها فجرت في أقل من نصف قرن حربين عالميتين دمرتا البشرية فضلا عن استعبادها واستعمارها لكثير من مناطق العالم مستبيحة لنفسها قنص خيرات الشعوب بعد

---

(١) انور الجندي في حضارة الاسلام .

(٢) المرجع السابق/ حضارة الاسلام .

ان اباحت قنص السود والقضاء على الجنس الاحمر ويكفي ان سياسة التمييز في الاجناس والالوان لا تزال معتبرة مع سياسات اجتماعية ودولية حتى اليوم .

كارليل في الانسان ذلك المجهول

كتب الكسيس كارليل في كتابه (الانسان ذلك المجهول) « ان الحضارة العصرية تجد نفسها في موقف صعب لانها لا تلائمنا . لقد انشئت دون اية معرفة بطبيعتنا الحقيقية اذ انها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية وشهوات الناس واوهامهم ونظرياتهم ورغباتهم وعلى الرغم من انها انشئت بمجهوداتنا الا انها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا . . . » .

وقد جاء هذا التحليل في مقدمة كتابه الذي كتبه من اجل (اولئك الذين يجدون شجاعة كافية ليدركوا - ليس فقط ضرورة احداث تغيرات عقلية وسياسية واجتماعية - بل ايضا ضرورة قلب الحضارة الصناعية وظهور فكرة اخرى للتقدم البشري) .

غوستاف لوبون : الانسان في الحضارة الغربية تائه

ويؤكد غوستاف لوبون في كتابه (السُنن النفسية لتطور الامم) ان انحطاطاً بيناً يهدد حياة معظم الامم الاوروبية الكبرى ولا سيما الامم التي تعرف بالامم اللاتينية والتي هي لاتينية في الحقيقة بالتقاليد والتربية ان لم تكن بالدم فهذه الامم . . . يكاد قضاء احتياجاتها المادية الزائدة يصبح مثلها الاعلى الوحيد وفيها تبصر انحلال الاسرة وتداعي المقومات الاجتماعية وفيها ترى انتشار السخط والارتباك . . . ويشبه الرجل المعاصر السفينة التي اضاعت بوصلتها فهامت على وجهها كما تشاء الرياح فتراه تائهاً كما تهوى المصادفة . . وتراه قد خسر الايمان ففقد الامل دفعة واحدة . . . ويلوح ان الجماعات بعد ان اصبحت سريعة الانفعال شديدة التقلب وبعد ان عاد لا يزجرها زاجر مقضي عليها بان تكون مذبذبة بلا انقطاع بين اشد ضروب الفوضى واثقل ضروب الاستبداد) .

والاشتراكية كالقيصرية استبداد بشع

ويعرف لوبون النظام القيصري[1] بانه (ليس له من المزية الا انه يؤدي

---

(١) كتب كتابه السنن النفسية في سنة ١٨٩٤ قبل الثورة الاشتراكية وقد طابق وصفه الواقع الحالي . . . مما يؤكد افلاس النظم الاشتراكية مسبقاً لانبثاقها من الضياع والتسلط واهمية هذه الشهادة انها كانت مسبقة وقد تحققت استقراءات لوبون

بسهولة الى المساواة في النذالة والضراعة في النذالة)

ثم يقول (يعاني نظام الاجيال القديمة ـ كالقيصرية ـ تطوراً واضحاً في الوقت الحاضر فتراه اليوم يبعث باسم الاشتراكية وسيكون هذا التعبير الجديد لاستبداد الدولة اقسى اطوار النظام القيصري لا ريب وذلك لأنه وهو غير شخصي يتفلّت من جميع دواعي الوجل التي تردع اقبح الطغاة .

. . . ومما لا شك فيه ان الاشتراكية التي ستفضي بها الى الخراب ستطغو عليهاصبغ علمية صارمة تصلح لمجتمع خيالي لا ينتجه البشر ابداً . . . ومع ذلك ستكون الاشتراكية نظاماً جائراً فلا يكتب له دوام . . .)

روجيه غارودي يتهم الحضارة الغربية وينادي بحوار الحضارات

وينظر الفيلسوف الفرنسي روجيه غارودي في كتابه « حوار الحضارات» الى الحضارة الاوروبية على انها (عرض زائل) ويقرر (ونحن نعيش في هذا الربع الاخير من القرن العشرين ازمة عميقة في الثقافة الغربية وفي النمو (الفاوستي) الذي يوحي به وهذا الانموذج (الفاوستي) قد ولد ما يسمى عصر النهضة الغربية التي لم تكن ثقافية فحسب بل ايضا مولد الرأسمالية والاستعمار المواكبين .

الرأسمالية : اي المجتمع الذي خلق الانسان الغربي ذا البعد الواحد : ذاك الذي ينتظر من نمو العلوم والتقنيات نموا نهائيا ليروي غلة ارادته في السيطرة والربح .

والاستعمار : اي المجتع الغربي الذي يزعم انه يتخذ هذا الانسان التقني مقياس الاشياء كلها ومركز المبادهة التاريخية الوحيد ومبدع القيمة الوحيد ومن ثم ينكر او يهدم جميع الثقافات اللاغربية ان (فاوست) هو الرمز المأساوي لثقافتنا الغربية) .

ويذكر غارودي ان تقدم الغرب ارتبط ارتباطا وثيقا بتخلف جزء كبير من العالم فنموه كان بالضرورة وليد « نهب ثروات القارات الثلاث ونقلها الى اوروبا والى امريكا الشمالية وبالمقابل فان الغرب هو الذي جعل ما نسميه العالم الثالث متخلفا » .

ويذكر غارودي ان الحضارة الغربية وقعت في مسلسل العقد البشع وفي

مقدمتها عقدة الاستعلاء على باقي الشعوب المعتبرة «من الوطنيين الذين لا يتمتعون باية حقوق انسانية » .

ومن اجل هذا كان على العالم ان « يتغرب » تغربا كاملا كما ان عقدة (العبقرية الاغريقية) -(والمعجزةالرومانية) تأتي في مقدمة العقد الغربية باعتبار انهما (الاغريق والرومان) اساسان من اسس الحضارة الغربية ، ومن العقد ايضا عقدة التقوقع القومي واعتبار التاريخ الغربي محورا للتاريخ العالمي والنظر الى التواريخ الاخرى على انها حواش عليه . . .

في (مدخل) كتابه حوار الحضارات ادلى روجه غارودي بشهادته فقال :

(انها شهادة على تجربة كونية تشمل الكرة الارضية . . . شهادة فرح بالمعنى الانساني الذي حملته اليّ ثقافات لاغربية واناس من آسية ، ومن الاصقاع الاسلامية ومن افريقية ، ومن امريكا اللاتينية انها شهادة تتناول ما بحثت عنه وما اعتقد اني اكتشفته في كل ثقافة من هذه الثقافات لدى كل انسان من هؤلاء الناس شهادة بالطابع الالهي . . .)

اما مضمون شهادته فهي التالية :

الغرب العارض و الشر الابيض

الغرب عارض طارىء . تلكم هي المصادرة الاولى في كل اختراع يتناول المستقبل . وهذا الطراز الذي ألفه « الغربيون » في اعتبارهم ان الفرد مركز الاشياء كلها ومقياسها وفي ارجاعهم الواقع الى المفهوم ، اي في الرقي بالعلم وبالتقنيات من حيث هي وسائل مداولة الاشياء والناس الى مصاف القيم العليا ، انه طراز استثناء ضئيل في الملحمة الانسانية التي دامت ثلاثة ملايين سنة .

وانا اطلق عبارة « الشر الابيض » على هذا الجانب من الدور المشؤوم الذي نهض به الانسان الابيض في التاريخ .

واذا تجردنا عن الحكم العرقي المسبق القائل بتميز الانسان الابيض وجدنا ان منابع الغرب (الاغريقية والرومانية والمسيحية) انما ولدت في آسية وفي افريقية .

وان عصر النهضة ، وهو ليس حركة ثقافية وحسب ، بل ولادة مواكبة

انجبت الرأسمالية والاستعمار ، قد هدم حضارات اسمى من حضارات الغرب باعتبار علاقات الانسان فيها بالطبيعة وبالمجتمع وبالالهي ، بدل ان يكون ذروة « النزعة الانسانية » .

والتاريخ الحقيقي ، اي التاريخ الذي يرغب عن ان يتركز حول الغرب ، قد يكون تاريخ « فرص » اضاعتها الانسانية بسبب التفوق الغربي الذي لا يرجع الى تفوق ثقافة بل الى استخدام تقنيات السلاح والبحر لاهداف عسكرية وعدوانية .

وبعد ان يرفض غارودي عقد الحضارة الغربية يؤكد ان العالم اليوم بحاجة الى تجربة كونية تقوم على الحوار بين الحضارات وان الحضارة الغربية عاجزة على تقديم هذه التجربة لذلك فهو يدعو الى اقامة الحوار بين الحضارات « فبهذا الحوار يمكن ان يولد مشروع كوني يتسق مع اختراع المستقبل وذلك ابتغاء ان يخترع الجميع مستقبل الجميع » .

كونستاتنان جورجيو في ساعته الخامسة والعشرين

وكأنى بغارودي يلتقي بطريقة غير منظورة مع الكاتب الروماني كونستاتنان جورجيو في قصته « الساعة الخامسة والعشرون » اي الساعة التي ستشهد حضارة جديدة بعد ليل الحضارة الغربية البشع والطويل . فقد اكد جورجيو ان الحضارة الغربية اوروبية وامريكية وروسية قد افلست وهي في طريق الانهيار الكامل . ويتطلع الى أمة ذات اصالة تفهم الواقع البشري وتتقدم لانقاذ البشرية ويقول :(ان هذاالانهيار الآلي سيعقبه اعتراف بالموهبات الانسانية وسيشرق هذا النور العظيم من الشرق ولا شك من آسيا ولكن ليس من روسيا . ان الروس قد انحنوا خاضعين امام نور الغرب الكهربائي فلن يعيشوا ليروا الاشراق . سيكتسح رجل الشرق المجتمع الآلي وسيستعمل النور الكهربائي لانارة الشوارع والبيوت ولكن لن يبلغ به مرتبة الرقيق ولن يرفع له معابد وصوامع كما هو الحال اليوم في بربرية المجتمع الآلي الغربي انه لن يضيء بنور (النيون خطوط القلب والفكر ان رجل الشرق سيجعل نفسه سيدا للالات والمجتمع الالي) .

حضارات مصطنعة

ومن اجل هذا وسواه تدرك الحضارة الاسلامية ان حضارات الاخرين هي

حضارات مصطنعة فُصِّلت بصورة لا تتلاءم مع الانسان بحجمه وشكله وجوهره كما قال كارليل الا انها حضارات يمكن التحاور معها ـ على حد تعبير روجيه غارودي ـ الا انه حوار لاجل اثبات احقية الحضارة الاسلامية بريادة البشرية والعالم واثبات قدرتها على الابداع والعطاء . فهي التي تملك المنهج الاقوم او الفكرة الاقرب للتطور والتقدم وفق قول كاريل وهي التي قالت بحضارة كونية واحدة ورفضت كل العقد وكل عوامل واسباب النقص والتخلف في حياة الانسان .

٦ ـ الربط بين العطاء وتوافر الضوابط

غير ان الحضارة الاسلامية التي بامكانها وحدها اليوم تلبية تطلعات جورجيو بان يكون الانسان سيد الآلة لا رقيقا لها وان يستخدم النيون لانارة البيوت والشوارع لا العقول والافكار .

ان الحضارة الاسلامية هذه ـ كما رأينا ـ تصر على طروحاتها الخاصة وتصر على الامتناع عن العطاء الكامل الا بعد ان تتوفر ضوابطها عندئذ لا تتردد الحضارة الاسلامية عن العطاء فالعطاء قدرها الذي لا انفكاك عنه لذلك فهي تعطي حتى في مرحلة توقفها . . . فكيف اذا غدت في مرحلة العطاء من جديد ؟

ان الحضارة الاسلامية تؤكد الربط بين نمائها وارتقائها وبين التقيد الكامل بجميع تصوراتها وعلى كل صعيد مع ما يمكن ان تستخلصه من تجارب الامم والشعوب فضلا عن ابداع العلوم وتقدم التكنولوجيا .

٧ ـ انا مسلم اذن انا متحضر

وتطرح الحضارة الاسلامية وهي تستلهم كل الطروحات وكل الاعتبارات تحديا ذا ابعاد هامة في كل المجالات هو ان المسلم لا يمكن الا ان يكون متحضرا . ان وجود المسلم الملتزم بمنهج الله وبمفاهيم الاسلام العامة والخاصة دليل على وجود واستمرار الحضارة الاسلامية ـ وأن كانت في مرحلة التوقف عن العطاء ـ اي ان المسلم لا يكون متخلفا في حال من الاحوال فإسلامه يدفعه الى التحضر والى التفاعل واستخدام الكون واقامة حياة حرة كريمة فيها الامن والراحة والطمأنينة والعدالة والكفاية والرفاه . . . تلك هي مقاييس الحضارات . . . من هنا يمكننا بدون صعوبة ان نقرر قاعدة (انا مسلم اذن انا متحضر) .

ولهذه القاعدة خلفيات هامة . فهي من جهة توجد فكرة الاستعلاء الايماني عند كل مسلم ليس من اجل الاستهتار بالشعوب الاخرى بل من اجل انقاذ تلك الشعوب . فعندما يدرك المسلم انه رجل الحضارة وانه بالتالي بحكم اسلامه **شهيد على الانسانية** تكون الحضارة الاسلامية قد أوجدت الذاتية التي يتجسد فيها **مقياس الحضارة المتجدد** . وهكذا يغدو المسلم مؤتمنا على مسار الحضارة التصاعدي ، متكفلا اقامة الحضارة الحديثة التي ستخرج الناس من ضيق الدنيا الى سعتها ومن جور الاديان والمذاهب والعقائد الى عدالة الاسلام ومن عبودية الآلة الى استعبادها ومن اهدار القيم والموهبات الانسانية الى الاعتراف بها وتنميتها .

الفصل الخامس

دور الطليعة

في إخراج الحضارة الإسلاميّة إلى مرحلة العطاء

ان قاعدة (انا مسلم اذن انا متحضر) صحيحة بقدر ما يعيش المسلم مفاهيم الاسلام عن الحضارة والتفاعل . وقد رأينا من قبل ان الحضارة الاسلامية غير فردية وهي لا تظهر الا بمجموعة المؤمنين عندما يقيمون تجمعهم على ارض معينة في زمن معلوم يطبقون على انفسهم وعلى تجمعهم هذا تصوراتهم ومفاهيمهم محققين التفاعل الحضاري مع البيئة والاكوان .

من هنا تغدو قاعدة (انا مسلم اذن انا متحضر) تحديا ذاتيا للمسلمين بقدر ما هي تحد في مسار الحضارات والتحاور معها . اذ لا بد لحضارتهم من تجمع ولا بد من تكامل الضوابط الحضارية في تجمعهم هذا حتى تتمكن حضاراتهم من العطاء واقامة المجتمع الاسلامي ولو كان صغيرا ـ على حد تعبير سيد قطب ـ فانه سيحدث الانقلاب الاكبر في الكون بأسره . والبشرية لا تستجيب عادة لمنهج مقرؤ او مسموع بالقدر الذي تستجيب فيه لمنهج حي متحرك مجسم ممثل في حياة جماعة من البشر مترجم الى واقع تراه العين وتلمسه اليد وتلاحظ آثاره العقول . . . ذلك ان اقامة المجتمع المسلم يعني في حقيقته ان العمل الطليعي بين مجموعة من المسلمين قد وصل الى مرحلة النضج وتملك اهم ضوابط الحياة فيغدو بذلك اقدر على تحمل اعباء الحضارة الاسلامية فتعتق هذه من اسار التوقف الى وهج العطاء المشع .

المحاولة بين القاعدة والطريق والهدف

ولا ريب ان المحاولات هذه محفوفة بالمخاطر والاشواك . ولذلك فهي بحاجة الى مزيد من التخطيط وروية في التفكير ودقة في التوجيه والتنفيذ ولا بد لها ايضا من ارتفاع اهل النخبة والقيادة الى مستوى المسؤولية الطليعية الرائدة .

وكأي محاولة لا بد لها من « **قاعدة** » تنطلق منها و« **طريق** » تسعى اليه

للوصول الى « **الهدف** » المنشود . وكل محاولة تفقد هذه العناصر الاساسية القاعدة والطريق والهدف او بعضها يكون مصيرها في الأعم الاغلب الفشل والاحباط . وبقدر ما تمتلك المحاولة الوضوح والعمق في اساسها بقدر ما تقوى على تجسيد نفسها في واقع حي فعال .

الريادة والشباب

ان ريادة المحاولة تقع دوما على الشباب ، على النخبة الطليعية التي تكون او يفترض بها ان تكون قيادة متفتحة واعية راشدة . . . ان درجة تفاعل هذه القيادة يرسم ـ الى حد بعيد ـ طريق النجاح والتمكن في الارض .

يقول ارنولد توينبي:« انه لا بد لكل جماعة انسانية من صفوة قائدة لكي تتقدم وتتحسن احوالها ولا يتم تقدم اذا عدمتها الجماعة فكأنها خميرة التقدم والنهوض . . . » ويقول: « ان مصير الجماعة كلها مترابط دائما بهذه الصفوة واحوالها فاذا ظلت على هذه الحال من القلق والسعي والمرض محل الفتح والكشف والتجديد والاحساس بمسؤولياتها عن الجماعة تكونت حولهم جماعة من الناس يسيرون في الطريق بعدهم واطردت مسيرة الجماعة وطال عمر صلاحها » .

من هنا فإن دور الشباب في ريادة الحضارة دور هام وخطير . فهم الخميرة أبداً في الامة . وهم موئل الامل والرجاء ولهم ـ في الحضارة الاسلامية ـ مكان أعلى فهم الفتية الذين آمنوا بربهم وزادهم الله هدى وهم من السبعة « الذين يظلهم الله في ظله » وهم بعد ذلك وقبله الفئة التي يمكن ان تؤثر وتقود . . . فهم بالتالي رعاة الأمة «وكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » .

والسؤال الذي يطرح نفسه ازاء ظاهرة التوقف في الحضارة الاسلامية يتشعب إلى أسئلة . . . ما هو دور الشباب اليوم ؟ ما هي واجباتهم ؟ وكيف يعملون في مرحلة التوقف الحضاري ؟ ثم كيف يتمكنون من اتمام العمل باخراج الحضارة الاسلامية الى مرحلة العطاء الكامل ؟ .

ان اجوبة هذه الاسئلة ليست بلغز ولا بأحاجي انما هي مجموعة الاعمال التي لا مناص منها في سبيل الهدف الاسمى المرسوم . . .

ان اسباب التوقف الحضاري التي باتت بصورها العامة معروفة مدركة هي التي ترسم معالم الطريق .

الوعي الحضاري الاصيل

فلا بد من **وعي حضاري اصيل** عند مجموع الأمة ، ازاء تصورات الاسلام العامة ومفاهيمه الاصيلة . . . اي لا بد من ازالة الغبش عن اعين الناس ليروا بصدق اكثر الاسلام في نواحيه المختلفة .

وحتى نصل الى هذا الوعي لا بد من تجاوز امور ومن مجابهة امور ومن تأصيل أمور أخرى . **تجاوز** لذواتنا **ومجابهة** لأعدائنا **وتأصيل** لأفكارنا ومبادئنا وقضايانا .

وخط المجابهة والتجاوز والتأصيل حركة دائمة متجددة معطاءة لا تقودها لا الطليعة الواعية لوجودها والمدركة لتطلعاتها والمقررة بإرادتها . . .

ان ظاهرة الطليعة هذه تعني هنا كل الافرازات الحضارية التي أفرزتها وتفرزها الحضارة الاسلامية ـ وهي في حالة التوقف عن العطاء ـ تلك الافرازات التي حددناها ـ آنفا ـ بالعلماء والمفكرين والقياديين والحركات والمنظمات والاتحادات الاسلامية من جهة وبالمؤسسات الثابتة الاخرى كالمساجد والمعاهد والحج والزكاة من جهة اخرى .

الظواهر الحضارية تقود خط المجابهة

ان هذه الظواهر الحضارية التي تعطيها الحضارة الاسلامية وهي في مرحلة التوقف عن العطاء هي التي تقود خط المجابهة التي تتمحور حولها كل الطاقات والقدرات من اجل حفظ الحضارة الاسلامية وفي سبيل اخراجها الى مرحلة العطاء باقامة ضوابطها وباستئناف الممارسة الاسلامية العاملة على الارض او حيز منها . . .

وهنا بصورة عامة لا بد من اعطاء الشباب دورا اساسيا في تحريك الظواهر الحضارية وتجنيبها الاخطاء وتطويرها نحو ممارسة غاياتها ودفعها الى بلوغ اهدافها المرتجاة .

فاذا كانت الظواهر الحضارية هي التي تقود خط المجابهة والتجاوز والتأصيل فان الشباب وهم العمود الفقري لهذه الظواهر عليهم ان يمارسوا دورهم في الحماية والعطاء والتطوير .

الدفع والتغيير والعقم القيادي

ولعل ابلغ تحد يطرح في مواجهة هؤلاء الشباب يكمن في عمليتي الدفع والتطوير فمن الملاحظات الاساسية ازاء الظواهر الحضارية السالفة الذكر ان بعضها لا يعيش زمانه فتبدو كأنها تعيش لعصر غير عصرها اي كأن الزمن قد تجاوزها وباتت الحضارة الاسلامية مسؤولة عن افرازات جديدة تكون قادرة على القيام بالدور الخطير .

ذلك أن بعض هذه الظواهر ـ كبعض الحركات والمنظمات ـ تهرم بهرمٍ يصنيب قادتها او بعضهم فيعجز هؤلاء عن اداء الدور الطليعي او من سد الثغرات في خط المجابهة والتأصيل فيتقوقعون على انفسهم ويغلقون على حركاتهم ابواب التطوير بحجة ان ما يرونه هو الصحيح وان على اهل تلك الحركة ان يروا بمناظيرهم . . . هنا تكون الحركة ـ وقد اصيبت طليعتها ـ امام خيارات هامة اما الخضوع لرأي القادة الهرم فتَتَقَوْقَع معهم واما ان تنهض الحركة فتزيح القادة الجامدين فتنطلق هي مع خط المجابهة والتغيير واما أن يتصادم اهل التغيير واهل الجمود في الحركة الواحدة فيقع الخلاف وتنشق الحركة الى حركات .

ولعل هذا التفاعل الذاتي في الحركات هو شأن طبيعي الا انه يغدو مع الظواهر الحضارية خطير للغاية . . . ذلك انه لا يكفي الحركات الاسلامية أو سائر الظواهر الحضارية ان تتواجد تحت عنوان اسلامي ولا يكفي قادتها أو الطليعة من الايمان بالاسلام ومعرفة الاصول الاسلامية وادراك المفاهيم والتصورات الاسلامية فلا بد لهم ايضا من ممارسة ومن تفاعل . ممارسة تلك المفاهيم بالقدر الممكن والتفاعل مع الاحداث وبالاحداث المحيطة بهم والاطلاع الواسع والمعرفة الدقيقة (بأرضية العدو) ـ كما يقال ـ وبأساليب العصر وطرقه والافادة منها على ابعد مدى في خدمة الظاهرة الحضارية التي يمثلون .

طبيعة العقلية الحركية

غير اننا لدى استقرائنا لاوضاع بعض الظواهر الحضارية الحركية ولدى تساؤلنا عن اسباب عدم تمكنها من احداث الانقلاب نلاحظ ان طبيعة « عقليات » القيادات تتحمل جزءا من افشال المهمات التغيرية المناطة بها نقول جزءا لان اجزاء اخرى تعود الى ظروف.وملابسات لا يكون قادة تلك الظواهر بمسؤولين عنها .

ونقول هنا ـ بصورة عامة ايضا ـ ان على الحركات والمفكرين الاسلاميين الانفتاح ورفض التقوقع ومعالجة الشؤون الحركية ووسائل التغيير ضمن عطاءات القاعدة الشهيرة (رحم الله رجلا عرف زمانه واستقامت طريقته) . ذلك ان اخطر ما يواجه الشباب والحركات والمؤسسات تبلد في الحس المسؤول يوصل الى ما يمكن ان ننعته بالعقم القيادي وهو ظاهرة خطيرة تقضي على الحركة وعلى تفاعلاتها وتحيلها الى اعمال روتينية لا تجدد فيها ولا حياة ويجعل الظاهرة الحضارية اقرب الى طور الافلاس الموصل الى الاستهلاك والدمار . وبمثل هذا العقم يستحيل على الحركةأن تحدث التغيير المطلوب أو أن تعيش لترى انعتاق الحضارة الاسلامية من مرحلة التوقف التي ارتضته لنفسها وهو انعتاق لا يكون حتى ترتفع الطلائع الريادية في افرازاتها المثمرة الى المستوى المطلوب .

الارتفاع الى المستوى

امر واحد ـ كما يقول سيد قطب ـ يجب ان يكون في حسابنا . . . ان امامنا كفاحا مريرا شاقا طويلا . . . كفاحا مريرا يجب ان نستعد له استعدادا طويلا يجب ان نستعد له بأن نرتفع الى مستوى هذا الدين . . . نرتفع الى مستواه في حقيقة ايماننا بالله . . . . في عبادتنا لله . . ونرتفع الى مستواه في وعينا بما حولنا ومعرفتنا لاساليب عصرنا ورحم الله رجلا عرف زمانه واستقامت طريقته ونرتفع الى مستواه في احاطتنا بثقافة عصرنا وحضارته وممارسة هذه الثقافة وهذه « الحضارة » ممارسة اختيار واختبار . فاننا لا نملك الحكم على ما ينبغي ان نأخذ منها وما ينبغي ان ندع الا اذا سيطرنا عليها بالمعرفة والخبرة فمن المعرفة والخبرة نستمد سلطان الاختيار[1] .

---

(١) المستقبل لهذا الدين ص ١١٩

من هنا كنا لا بد من عطاءات قيادية متجددة ولا بد من تدريب هذه الطلائع وتأهيلها للقيام بدورها في خط المجابهة والتطوير .

إن من اهم المستلزمات والاحتياجات هو تطوير الكفاءات القيادية بين الشباب . . فبإمكان هؤلاء القيام بالكفاح المرير ومن دفع سائر الظواهر الحضارية الاسلامية الى منتهاها .

تحريك أطر التحديات الحضارية

ومن المسؤوليات الضخام الملقاة على كواهل الشباب القائد تحريك أطر التحديات التي تطرحها الحضارة الاسلامية . فالتحديات التي رأيناها لا تتحرك الا بجهد جبار بجهد يليق بهذه التحديات والا تحولت هذه التحديات الى طروحات أو مقولات . . . وبالتالي تفقد زخمها واثرها في التحولات الحضارية المرتقبة سواء في منطقة الحضارة الاسلامية او في الحضارة الاخرى .

ان بدايات هذا التحريك تبدأ بنزع ما يسمى بحالة التخلف الحضاري او الانبهار بحضارات الآخرين او احساس العجز والخور امام التيار الحضاري الزاحف وهي حالة اناخت بثقلها على جسم الأمة .

وحتى يتمكن الشباب من تدميرها وزحزحتها عن صدور الناس لا بد من تخطيط وصبر .

وجميل هنا ان نسمع نداء الدكتور دون لويس روفاس استاذ علم النفس في كلية الطب في غرناطة (انصحوا المبهورين بحضارة الغرب ان يعيدوا النظر فيها احذروا يا عرب يا مسلمون ان تخلطوا تصوراتكم بالتصورات الاوروبية انتم اهل حضارة عريقة وهي وان كانت لم تصل من الناحية المادية الى مستوى الغرب الا ان لها مقومات لا تملكها حضارة بلداننا الاوروبية . ان الانسان حاول ان يؤله نفسه بواسطة العلم والعلم وحده ولكنه وجدها احقر واقل مما كان يعتقد فلا تتخلوا عن نزعاتكم المكتسبة من تصوراتكم الاسلامية ولا تتطلعوا الى الحضارة الغربية تطلع الممجد لها المعظم لشأنها : انها ستبلى)[1] .

---

(١) عن حضارة الاسلام لانور جندي

وتأتي هذه البدايات تأصيلاً لقاعدة (انا مسلم اذن انا متحضر) وما يستتبع هذه القاعدة من توضيح المفاهيم الاسلامية وتصوراتها وضرورة ممارستها وعلاقة ذلك كله بالتفاعل الحضاري . . . فلا يمكن ان تتجدد طاقات التفاعل خاصة في مراحل الانطلاق الاولى دون مشاعر الاستعلاء الايمانية وما يمكن ان تفرزه من عطاءات ومواهب وقدرات ولا ريب ان قاعدة (انا مسلم اذن انا متحضر) تتكفل بمثل هذه الامدادات الاستعلائية .

وهكذا تتالى التحديات الحضارية في سلسلة متكاملة حتى يدرك معها الشباب أنهم امام تحول حضاري مرتقب وان عليهم ان يقوموا بكل عبء وبكل تنظيم وبكل تغلغل معقول في جسم الأمة وفي مؤسساتها من اجل ايجاد واقع حيّ تترعرع فيه تحديات وطروحات الحضارة الاسلامية .

واجب الشباب

ومن هنا ينشأ واجب الشباب المسلم الواعي القائد في (حضرنة) مؤسساته الرسمية والشعبية في بلاده وفق المفهوم الاسلامي وبمعنى آخر تطويع مؤسساته ومجتمعه لطروحات الحضارة الاسلامية . عندها تتمكن هذه الطروحات من التحول الى تحديات تنتج تفاعلات مهمة على كافة الاصعدة وعلى هذا فإن دور الشباب يغدو مرتقبا إذ أنه هو الذي يربط المرافق الاجتماعية والاقتصادية والمالية والعمرانية والتربوية والسياسية والتخطيطية والصحية والاعلامية والقانونية القضائية بالمقولات الاسلامية فتأتي هذه ضمن ارادة التحديات الحضارية لتزيد في فرز الظواهر الحضارية وفي قدرتها على الحياة والصمود والتمكين والمجابهة . ولا ريب ان مثل هذه المسؤوليات الضخام لا بد اذا ما اريد لها حسن التنفيذ وتجاوز الاخطاء والافادة من الظروف واستمرار المدد الشبابي والعطاءات القادرة . . . لا بد لتلك المسؤوليات من التنسيق والتجاذب والتعاون والتعاضد . . . اذ لا يجوز في المنطق الاسلامي كما في اساليب هذا الزمن التفرد والتشتت لان هذا يؤدي الى الضياع وفي اسوأ الظروف اضعاف حجم الظواهر الحضارية التي تفرزها الحضارة الاسلامية بسخاء .

من اهم مراجع البحث

١ ـ ما وراء التاريخ ـ وليم هاولز
٢ ـ الحضارة تحت التجربة ـ ارنولد توينبي .
٣ ـ الحقيقة الحضارية ـ دكتور جورج حنا
٤ ـ مقدمة ابن خلدون ـ ابن خلدون
٥ ـ شروط النهضة ـ مالك بن نبي
٦ ـ معالم في الطريق ـ سيّد قطب
٧ ـ الحضارة الاسلامية أسسها ومبادؤها ـ أبو الاعلى المودودي .
٨ ـ نظام الاسلام ـ تقي الدين النبهاني
٩ ـ الحضارة ـ حسين مؤنس
١٠ ـ قصة الحضارة ـ ول ديورانت
١١ ـ الغرب والشرق الأوسط ـ برنارد لويس
١٢ ـ حضارة الاسلام ـ أنور جندي
١٣ ـ حوار الحضارات ـ روجيه غارودي
١٤ ـ نفسية الأمم ـ غوستاف لوبون
١٥ ـ المستقبل لهذا الدين ـ سيّد قطب
١٦ ـ الاعلام الاسلامي والعلاقات الإنسانية ـ موضوع اللقاء العالمي الثالث للندوة العالمية للشباب الاسلامي
١٧ ـ الطريق إلى حكم إسلامي ـ محمد علي ضناوي
١٨ ـ مجلة عالم المعرفة
١٩ ـ مجلّة النهار البيروتية
٢٠ ـ المجلات الاسلامية

الفهرس

كتب للمؤلف

١ ـ تفسير جزء عم : معانٍ وموضوعات
٢ ـ سجّل التمارين القرآنية (خاص بجزء عمّ)
٣ ـ الطريق إلى حكم اسلامي (الطبعة الأولى)
سلسلة الطريق إلى حكم اسلامي.(تحت الطبع)
٤ ـ الزواج الإسلامي أمام التحديات
٥ ـ المسلمون في لبنان مواطنون لا رعايا« طبعة ثانية»
٦ ـ مقدمات في فهم الحضارة الاسلامية « طبعة ثانية »
٧ ـ تحت الاسوار (مسرحية)
٨ ـ سلسلة القصص النبوي : « طبعة ثانية »
أ ـ نار وإيمان
ب ـ غار الاخلاص « طبعة ثانية »
جـ ـ « الف » لا تضيع . . . (تحت الطبع) .
٩ ـ سلسلة مجالس التفسير . خمس حلقات (تحت الطبع)
١٠ ـ قصة الحرب في لبنان مخطوط
١١ ـ الحركة الاسلامية في حرب لبنان
١٢ ـ سلسلة قصصية للأطفال آيات الله في خلقه . مخطوط .
١٣ ـ عمر بن عبد العزيز في السياسة والحكم والاقتصاد « طبعة ثانية »

تطلب جميع منشوراتنا من
الشركة المتحدة للتوزيع
بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٢٩٥٥٠١ - ص.ب: ٧٤٦٠ - برقياً: بيوشران

الثمن: ٤٥٠ ق. ل.